

مكتبة | 192

جود صفوان مبيضين

JOUD S MOBAIDEEN

جرح الياسمين

اليازوري

جرح الياسمين

جرح الياسمين

جود صفوان المبيضين



الطبعة العربية - 2017

رقم الإيداع 192/1/2017

التحرير : هيئة تحرير
تصميم الغلاف : نضال جمهور
الصف والإخراج : سامي ابو سعدة
المطبعة : مطبعة رشاد برس بيروت



اليازوري

دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع

عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
هاتف 4626626 6 962+ تلفاكس 4614185 6 962+
ص.ب. 520646 الرمز البريدي 11152
info@yazori.com www.yazori.com

جود صفوان

جرح الياسمين

رواية



لا أعلم

لا أعلم ما الذي يمكن يخفيه الياسمين تحت نصاعة بياضه
غير رحيق لا يمتزج بالماء ولا بالرصاص؟

ولأنه لا يجيد ارتداء الأقنعة يبقى وحده .. وجه الحقيقة
ودورة حياته الوحيدة التي لا تمحى بقذيفة ولا تختصر في حضن
السيف أو قطعة قماش.

لقاء الأرض

يقولون أن المطر هو ابن الأرض الذي هاجر إلى السماء، ويعيده الشوق إليها، حين يهطل .. تشعر بأن شيئاً كرائحة الأحبة الذين غادرونا يملأ المكان ..

* * *

من مزايا شجرة التين أن ثمارها تسبق أوراقها، وكأنها ترسم المجد للمبتسمين رغم الخريف والحزن والقتل إشارة إلى أن الإنسان قادر على أن يتجاوز التقاليد البالية في انتظار الوقت، من أجل الحصول على قصب السبق والظفر بالهدف المرسوم..

هذه (الجود) تنضج قبل نضج التين والعنب، وتعيد بناء المفهوم الذاتي بأننا لا نحتاج لتقسيم الأعمار لمرحلة الدراسة، ومرحلة العطاء، ومرحلة انتظار الثمر بل تقول: أنا قادرة على جمعها وقطف الثمر معاً، فبعد أن ملأ عقلها المتوقد بما يليق بالقلم أن يسير متئداً، تناولته وسيرته بين أقلام تعايشها وتشاهدها لتضع بصمتها على الأبجدية، وترص

الكلمات وجمال المفردات رصاً في صفوف أنيقة كروحها.. وكأنها الوطن يبيت والشوق يطوي راحتيها وجعاً.

بين ذلك الرجل الذي يفترش ماء الطرق الأنيق، إلى تلك الوجوه التي تتفتت ألماً على ما كان، إلى الرقة المفجوعة التي ألقوها في البئر ورحلوا عنها مروراً بشتاءات الطفولة الدافئة وانتهاء بالقلب الذي عاد بألف شق وكسرة .. كتبت (جود) لترسم وجع الأمة الذي ينخر عظمها أضاءت بروحها الهواجس المبتورة لعل هناك ما يقايض ذاكرتها بحفنة من نسيان ما آلت إليه حال الشام..

صفحات لكنها جروح وبحر أسئلة، ووجوه اغتراب ولوحات منفى في لحظات القطف ولحظات القصف.

أحداث وشخصيات تتسابق لتتسرب في تلافيف العقل وترسو في حنايا الروح لكي تنادي بنا .. هذا أوان الشد فاشتدي.

وتردد ما قاله (محمود درويش):

إنني أحلم بالزنابق البيضاء..

بشارع مغرّد ومنزل مضاء.

اريد قلباً طيباً لا حشو بندقية..

أريد يوماً مشمساً .. لا لحظة انتصار فاشية..

اريد طفلاً باسماً يضحك للنهار ..

لا قطعة في الآلة الحزينة.

جرح الياسمين/

بعد سنين من الإفراط في الخيال .. كان لا بد من قليل من الواقعية لكن للأسف ربما لم يعد هناك واقع .. بل خيال ..

حاولت خلال السنوات الماضية مجاراة الواقع بصورة ببضع كلمات .. بومضة أمل ببصمة أبجديات..

لكن إيقاع الواقع المرير كان أصعب من أن يجارى، وأقسى من أن يختزل في قصة أو رواية أو صورة لغوية أو أسلوب توريه..

الذين كتبوا قبلي كانوا أجدر مني، وأبلغ مني، لكن آثرت أن أجرب وجع الأبجديات.

ولأن دورة حياة الياسمين كنكهة الزعتر تزكم الذاكرة ولأن امتداد الكلام صحاري .. والوطن نخيل

كان هذا الوجع

بقلم

الدكتور خليل الزيود

«الزهرة الأولى»

في بلادي يدفن الشهداء على عجل
ويموت الأحياء ببطء وبلا خجل .. (محمد الغفش)
لما كانت بعض الأجوبة يمكن ارتجالها .. والكثير لا ..
فسرعة الإجابة لا تعني بالضرورة صحة الرد أو سلامة البديهة..

ولأن استدراج الذاكرة أمر بالغ الصعوبة، لأنها مصدر العذابات، كان لا بد من نبش الوجع لنعاتب أنفسنا لعدم نسيانها والتخلص منها.

في صباح يسابق خيوط الفجر قبل شروقها، وفي بدايات ديسمبر فصل (شروق) المفضل، استيقظت بعدما لفظها الحلم، تفاوض سريرها الدافئ على أن يتركها لتمارس نشاطها اليومي، ولتغذي عيونها بصباحات والديها، لكنه يأبى إلا أن تستمتع بدفئه..

بعد مقاومة استمرت لدقائق عززها صوت المنبه وقفت خلف نافذتها، تفكر بشرود في ذاتها وأحوال أهلها، تبحث بين سراديب عقلها عن الأسرار الخفية للسعادة، تبحث عن بعض مفاتيح البهجة التي تدوم

في زمن أصبح فيه الانكسار ليس ما تبصره العين بل ما يخنق القلب بانكسار بلاد الياسمين.

لكن قدح زناد أفكارها لا يكل ولا يمل، فقد ترددت في الأيام الغابرة، أحاديث كثيرة عن القتلى والجرحى والمهجرين من ديارهم كأنها أساطير تنتقل بين عالمين مختلفين في الشكل والوقت وطريقة الموت..

تأتي صورة الأطفال الجرحى والأمهات الثكلى من خلف الذاكرة لتغرقها في دموع لا يعرف منبعها، تنقطع الصورة فجأة بصوت (أم ورد) تنادي ابنتها: هيا يا شروق .. يكفيك كسلاً!!

لملمت (شروق) ما تبقى في مخيلتها من ذكريات، ولأن الشروخ أكبر من أن تترجم إلى كلمات أو نظرات، وبعد إفراط في الخيال لطفلة في عمرها، انسحبت إلى الواقعية واستجابت لأمها وخرجت بكامل طفولتها تغسل وجهها وتقبل رأس أمها، وتسأل عن والدها..

تحاور أمها: أمي .. لم تأخرت في إنجابي؟

ردت (أم ورد): إرادة الله يا بنيتي لكن بقدومك كان العيد وكانت فرحة والدك، الذي أقام على شرفك وليمة كبيرة لأبناء الحي ابتهاجاً بك..

- ألهذا الحد يا أمي؟!

- وأكثر من ذلك.. فقد أسماك (شروق) تيمناً بشروق الشمس بغد غروبها.

- أطال الله في عمركما يا أمي .. ومنحني القدرة على بركما.

في معمعة أنفاس الحنان التي تبثها (أم ورد) وتنثرها حول (شروق)

طلبت منها أن تذهب لتوقظ أخويها اللذان أرهقتهما الأماني التي لا تكف عن المطالبة بالظهور في ظل هذا المكان الذي يخيم فيه الموت كضيف ثقيل الظل.. يقتل الأحلام والبلابل والصفصاف.

لا لست بخير .. هذا ما قاله ورد حين حاولت (شروق) أن توقظه طالباً منها أن تتركه لينام مزيداً من الوقت، فهو لم ينم ليلته من شدة الألم الذي انتابه بعد أن سقط عن شجرة السنديان..

هرعت شروق لتنادي أمها، فجاءت أم ورد وكأن على رأسها الطير، ما بك يا ولدي؟ عساك بخير..

- لا تقلقي يا أمي أنا بخير.. لا شيء سوا أنني بحاجة إلى مزيد من النوم.

تحسست أم ورد جبين ابنها، فوجدت أن حرارته مرتفعة فطلبت من (شروق) أن تأتي بوعاء ماء وقطعة قماش لتبللها وتبرد بها جبين ورد.

خرجت ورد مسرعة وعادت بما طلبت أمها، وتركتها مع ورد، وذهبت لتوضيب غرفتها، وجمع الأفكار في صناديق ذاكرتها .. تتمتم في سرها اللهم أحسن الحال.

تردد ما قاله أحمد سحلبجي:

إن كان لي نصيب في قذيفة ما

أريدها بمقاس صغير

لتحدث في سقف غرفتي فجوة هادئة صغيرة..

تكفي فقط ليخرج ملكوت الموت وروحي .. دون أن تستيقظ أمي..

في هذه الأثناء.. خرج سيف من الحمام، عابس الوجه ويقول: لم

تقصم ظهري مضارب الفأس بقدر ما قصمه ظلم الإنسان للإنسان، لكنه بمجرد أن لمح وجه شروق الملائكي انساب الهدوء في عروقه المختالة بعذب ضحكاتها الخجولة.

وهنا .. ينادي أبو ورد على طفلته قائلاً:

صباح العطر العالق بالقلب كرائحة المطر..

صباح الكلام الذي لم يحك..

صباح التي تصحو مع ابتسامتها شتلات الزعتر.

صباح التي أدير وجهي نحوها كلما شاء القلب أن يتعطر.

فتأتي شروق مهرولة لتلقي بنفسها بين أحضانه مرحبة بوابل القبل وسرب الحنان الذي لا يروي ظمأها غيره، ويأخذها من يدها ويخرجا خارج المنزل، ليستمتعا بمناظر الطبيعة الخلابة.

أبي... إن امتداد الكلام صحاري

وأنت النخيل.

الزهرة الثانية

الانكسار ليس ما تبصره العين.. بل ما يخنق القلب
فمنكسرون أمامك يا بلاد الياسمين .. كلنا منكسرون.

في ربيع عام الفين وأحد عشر وعلى مقربة من ضفاف نهر الفرات، وتحديداً في مدينة الرقة، تلك التي تحتضن الياسمين، لتنشر الطيب في أرجاء المكان والإنسان، تلك المدينة التي لا تنكر أبنائها، فأمهاتها جميلات، زرعها أكثر خضرة من قوس قزح.

تحت دالية العنب كان يجلس (أبا ورد)، وقد مد رجله اليمنى (الصناعية) وثنى رجله اليسار تحته، ملامحه تشبه من يمسك طفلاً تلوكه الصدمة، يرقد تحت دفع الدموع، ملامحه تشبه ملامح الشام في جماله.. في وجعه.. كأنه مرآة وطن، فهو كريم معطاء أفنى حياته في حب أرضه والعناية بها، كان يؤمن بأن الحياة جميلة حين نتحدث عنها أو نقرأ عنها في الكتب، لكنها مرعبة عندما نختبرها بأنفسنا.

أحياناً يشعر الإنسان أن أرضه في مكانة ولده، أو أنها التي ولدته أو ولد منها، وهذا شعور ذلك الرجل السبعيني (أبا ورد)، الذي تلونت تجاعيد وجهه بلونها..

كانت تقاسيم محياه تشعر الآخرين بحجم القناعة التي تبلغ عنان السماء والتي يتمتع بها، والتي عَوّد أولاده عليها قدر ما استطاع.

ورد .. الابن البكر ابن الثانية والعشرين عاماً الذي يتظاهر دوماً بأنه بخير مهما عصفت به الحياة، لإيمانه بأن الكتمان أجمل بكثير من أن يتسول شفقة الآخرين عليه.

سيف.. ذلك الذي يصغر ورد بعامين، والذي يؤمن بأن أحلامه وأفراحه دائماً مستهدفة.. فثمة قناص في كل مكان.

شروق.. ابنة الثمانية أعوام، التي يرى فيها الجميع لون الحقيقة، ولون تراب الوطن.

يشرد أبو ورد بتفكيره، وهو يتأمل شروق ويسأل نفسه: من يدري إن كنت سأعيش لأزين نظراتي بها وهي عروس، أعتقد بأنه سيكون لها شأن كبير ونصيب عظيم من الدنيا وجمالها في المستقبل، قد تكون من المؤثرين، فهي تتمتع بذكاء حاد يسبق عمرها العقلي عمرها الزمني بكثير، لكني أخشى عليها مما آلت إليه الأحوال، ففي سورية لا شيء أقصى من أن يراقب طفل حلمه من بعيد.. لا شيء يوجع أكثر من حلم طفل.

وبينما هو يجول ذاكرته بذكرياته تأتي (أم ورد)، وهي في بداية الستينات من عمرها، ذات البشرة البيضاء، والعيون الزرقاء التي لا

تكل ولا تمل من رفع يديها إلى السماء والدعاء بأن يحفظك الله لها عائلتها، مؤمنة بكل يقين أن دائماً في الغيب شيء جميل يستحق الصبر.

- هل أحضر لك اللبن الرائب مع الفطور؟ أم تريد أن تشرب الشاي؟

رد أبو ورد: بل أحضري الشاي، فنفسي لا تطلب الفطور.

- هون عليك يا أبو ورد، واضحك برؤية أولادك، فسلاماً على عيون تضحك ولو ارتكب الحزن فيها مجزرة.

سكبت أم ورد الشاي، وفي هذه اللحظة جاءت شروق بوجهها الأبيض وشلال شعرها الأشقر الطويل، الذي يكاد أن يلامس خصرها، وبعيونها الزرقاء الأقرب في لونها من سماء الرقة، تحمل صينية عليها من النعم ما لذ وطاب (اللبن والزيت والزعتر والطماطم المقطعة، والبصل الأخضر) وخمس أكواب للشاي فارغة..

اجتمعت العائلة لتناول وجبة الإفطار، ومناقشة بعض الأمور، وتبادل أطراف الحديث، يمدون أيديهم ليقطبوا جرح البلاد بخيط الياسمين ويجوبون الحارات ببياض قلوبهم ونبض الحنين.

يقول أبو ورد: الحمد لله الذي منَّ عليَّ بأن أراكم حولي، وقد كبرتم، وبإمكانكم أن تكملوا المشوار بعدي.. تقاطعه شروق: بدونك يا والدي لا نستطيع أن نكمل أي شيء، مهما كبرنا سنبقى أطفالاً في حضرتك..

يضحك أبو ورد ويقول:

لا يوجد ما هو أجمل من تلك المشاعر التي تولد بداخلي وكأنها نهر ينتصف القلب يروي جفاف الذكريات عندما أسمع كلماتك يا شروق،

ثم يضيف أتذكرين يا عزيتي العام الماضي عندما كنت أحرث الأرض ولشدة حرارة الشمس والإجهاد سقطت أرضاً، أتذكرين كيف استطعت سحبي من تحت الجرار!!

منذ ذلك الحين شعرت بحجم نعمة الله عليَّ، وتيقنت بأنني أنجبت رجلاً ثالثاً واعياً لكل ما يدور حوله، وليس طفلة في الثامنة من عمرها..

ترد شروق: يا أبت، العمر يقاس بالعقول لا بالسنوات، فيطلق الجميع ضحكات منخورة فرحين بفلسفة شروق، ويقول سيف لأبيه: لقد أنجبت رجلاً بلسانين.

- ترد شروق على سيف: لو أنك لا تكبرني سناً، لعرفت أن أرد عليك.

فتتعالى الضحكات إلى الحد الذي تخرج فيه أم ورد من مطبخها مسرعة وكأنها تخاف على عائلتها من السعادة، تتمتم وتقول: لعله خير.

يقول أبو ورد: حسناً يا أبنائي سيكون برنامجنا اليوم حافلاً، سنذهب إلى الحقل، فقد وردني اتصال من الحاج أحمد صاحب المشاتل في درعا، وأبلغني أنه أرسل لي مجموعة من الأشتال لزراعتها بعد تأخرها الفترة السابقة نظراً لسوء الأحوال الأمنية، لذا أريد منكم أن ترافقوني لنستطيع الإنجاز في يوم واحد..

ثم يوجه حديثه لأم ورد قائلاً: وأنت يا أم ورد أعدي لنا طعاماً يليق بجهدنا وضيافة السائق لنتناوله جميعاً تحت شجرة السنديان..

ترد شروق نيابة عن أمها: حسناً يا أبي سيكون كل شيء على ما يرام..

ثم تضيف: أتعلمون!! أن أجمل أوقاتي وأنقى لحظات سعادتي تكمن

في غرس شجرة جديدة في الأرض، أشعر بأنها تصبح شاهداً جديداً على استمرارية الحياة.. لا أستطيع أن أصف سعادتي وأن أغرس أصابعي في التراب الأحمر وأقلبه.

يقاطعها أخوها ورد ويهمس في أذنها:

يا شروق كفاك مثاليات، كلما شكونا من قسوة العمل في الأرض وأن مخرجها لا يكافئ تعبها، تخرجين علينا بسعادتك التي لا يشعر بها سواك، مما يحفز والدي على المزيد من التضحية لأجلها.. أرجوك خففي من التعبير عن سعادتك من أجلنا.

يقول سيف: أماه .. لقد تعبنا ومللنا من هذا الروتين، وما زال أمامنا أحلم ومسؤوليات كثيرة لم تتحقق بعد، لقد كبرنا أنا وأخي وبدأت أحلامنا وطموحاتنا تلوم الزمن الغابر منا، وتدفعنا للخروج والبحث عنها، متى سنتزوج؟ متى سنبني أسرة؟ إن الأرض لا تنبت ذهباً يا أمي.

ترد شروق: حتى وإن أنبتت شوكاً، فإنه من طعام الإبل، سبحان الله الذي خلق كل شيء لكل شيء، فما لا يريده شخص هو أهم احتياجات شخص آخر..

يقاطعهم أبوهم فيقول: إذا استمر نقاشكم هذا سيذهب نهارنا أدراج الرياح دون أن ننجز أعمالنا.. ويردف قائلاً: يا أم ورد.. ما مخططك لطعامنا؟

- سأقوم بعمل الكوسا المحشي باللبن وورق العنب والطماطم المحشوة باللحم، ليختار ضيفنا ما يناسبه.

- بارك الله فيك، يقول أبو ورد وينهض بمساعدة شروق وورد، ويركب الجرار ويتوجهون جميعاً إلى المزرعة.

تصرخ شروق.. انتظروني سأحضر إبريق الشاي وبقية الأغراض لأصنع لكم الشاي على نار الحطب في المزرعة.

لم يكن لدينا هم أكثر من حياة تتنفس ياسميناً ولا ترى إلا الأحلام..

صنعوا من أوراق الليمون تقويماً، فاح منه شذى السلام

ومن الأبجدية المتناثرة حاكوا لغة وكسوا اللسان عذب الكلام..

وفجأة .. اتكأ أحدهم على فوهة بندقيته، وأفتى بأن ما قاموا به

حرام .. اغتال الطير والشجر، وعاث بالأرض الفساد، وحقد على

السلام.

الزهرة الثالثة

أنا شجرة أمد أعماقي في أعماق الأرض..
أنا نهر تسيل مياهه فتسقى العطاش..
أنا سماء تضم النجوم .. أنا هالة تحاصر القمر..
أنا بحر يطوق الجزيرة..
ولكن مالي أدعي هذه الدعوى العريضة..
أتمنى أن أكون ورقة في شجرة.. نقطة في نهر
شهاباً في سماء .. سحابة حول قمر .. صدفة في بحر
(عبد المعين الملوحي)

تجلس شروق تحت شجرة السنديان تخاطبها:
أعتقد أنني عندما أكبر سأشبهك، سأكون كما أنت.. صحيح أنك شاهقة الارتفاع، لكنك تستوعبين الجميع نستظل بظلالك الرائعة،

ورغم امتداد عمرك إلا أنك ما زلت قادرة على العطاء، وإن لم نعتن بك.. القيمة الجميلة تبقى كذلك تتجاوز النكران من الآخرين.

وكأنك تلفظين ما قاله أمين معلوف:

«الحياة أشبه بالحريق، لهب ينساه العابر، ورماد تذروه الريح.. وإنسان .. كان قد عاش».

أرهقت أرواحنا تلك الأحلام البرجوازية التي عشنا لجمعها على رفوف مخيلتنا الواسعة لتضمن لنا حلاوة العيش داخل صناديق عقولنا إلا أننا لن نفلح إلا في قبول ما قسمه الله لنا..

تسمع صوت قادم من بعيد.. إنها الشاحنة القادمة من درعا يغلب عليها غبار الطريق، تعاود شروق لتسأل شجرة السنديان: هل تعرفين درعا؟

إنها المدينة الجنوبية الوادعة.. وما أدراك ما درعا..

درعا .. وجع الجنوب .. آهات العدالة والحزن المعشش في الجدار

آه يا درعا كان يلزمنا قلوباً اكبر كي تتسع لكل ما بك من أسى..

تقترب الشاحنة شيئاً فشيئاً، وتركض شروق لتلحق أباها وإخوانها لاستقبال الضيف وما يحمل، يردد أبا ورد:

- أهلاً وسهلاً بك..

- أنا عطية أرسلني الحاج أحمد لأوصل لك هذه الشتلات، ويبلغك السلام ويعرب لك عن عظيم شوقه.

- حياك الله أخي عطية وأهلاً وسهلاً بك.. تفضل خذ ضيافتك..

يجلس الجميع تحت السنديانة يتبادلون السلام والتحايا، ويتبادلون

أطراف الحديث حول درعا وأهلها، يقول أبو ورد: سيد عطية .. حدثني عن درعا وأهلها الطيبين..

درعا.. يا أبو ورد، والحديث للجميع درة الشام، الناس فيها جميعاً على قلب رجل واحد في توادهم وتراحمهم، سهل حوران كبير يحتوي الجميع، سنابل القمح التي تجود على الجميع، أرضها خضراء تمتد على مساحات كبيرة، لا لجمالها حدود، كيف أحدثك عن درعا وحوران؟ وما أن اختلجت الحروف في قلبه، وانحبست الحروف في شفتيه، وحاصرت دموعه جفونه، قاطعته شروق قائلة:

- يا عم عطية كيف كانت رحلتك من درعا إلى الرقة؟ وما رأيك في جمال الرقة؟

- أما عن الرحلة من درعا إلى الرقة، فقد كانت من أجمل ما يكون، سلكت طريق البساتين لأمتع عيني بالخضرة، وكنت كلما تعبت من القيادة أوقفت الشاحنة لآخذ قسطاً من الراحة بين كروم العنب وأشجار الليمون والكل يعلم كرم أهل الشام، فكأنني في فسحة أستنشق جمال الأرض وأتذوق الطبيعة الخلابة.

أما الرقة، فلها من اسمها نصيب، تلك المدينة الرقيقة التي تجاور الفرات، فأنا لم أزرها من قبل، فتفاجأت بجمالها، وجلست في طريقي على ضفاف نهر الفرات طويلاً أتأمل سحر طبيعتها، فسرقني الوقت، وهذا سر تأخري عليكم وكأن سحر المكان أوقف الوقت..

يضحك الجميع، ويشعل ورد النار لصنع الشاي على الحطب،

فينفخ في النار ويقول: أتمنى أن تقضي وقتاً ممتعاً معنا.

يقاطعه سيف ويقول: عم عطية، حدثنا عن أسرتك وعملك..

آه آه   يا سيف   تنهد العم عطية وكأنه ينزح الوجع من بئر، ما أبشع الشعور الممزوج بين السعادة والخيبة، حينما يتسلل إلى داخل الأنقياء كمتطفل يتلصص على دفاتر حياتنا الثمينة.

يقول: أنا متزوج منذ عشرين عاماً، لكن الله لم يرزقني الولد، وعندي منجرة أقوم بتفصيل الأثاث والأبواب فيها، وابيع ما أنتج في بعض مدن الشام، لكني في الفترة الأخيرة أصبحت أشعر بتعب شديد، فلم يعد في الصحة ما كان.

قاطعه سيف: ولم لم تستعين بمن يساعدك؟

- حاولت مراراً وتكراراً، لكني لم أوفق حتى الآن في اختيار الشخص المناسب.

وهنا قدحت الفكرة في زناد عقل العم عطية، وكأنه وجد ضالته، وقال: أتعلم يا سيف، إن كنت أتمنى شيئاً في هذه اللحظات فهو أن ترافقني إلى درعا وتعمل معي، وسوف أساعدك لتتعلم المهنة، وتبني مستقبلك وتشق طريقك في مجال العمل وكسب المال، وتأكد تماماً أنه قد تنمو حياة بعضنا وتكبر على تلك السطور أحلام وآمال تشقينا ولا تتحقق، ونتكبد خسائر فادحة في التمني، فما رأيك في هذا العرض يا سيف؟

في هذه الأثناء، نظر سيف يستطلع إيماءات وجه أبيه، ويراقب ردة فعله وتقاسيم وجهه فيقول مجاملاً، وعلى استحياء: وكيف لي أن أترك

والدي وحده، خاصة وأن ورد يعمل بنقل البضائع من وإلى العراق بين الحين والآخر، وفي كثير من الأحيان يغيب لأكثر من شهر متواصل.

وأنت ترى يا عم عطية أن والدي أصبح لا يقوى على أعمال الأرض بمفرده، كما أن والدتي وشقيقتي بحاجة إلى من يرعاهما ويقضي حوائجهما..

يرد أبو ورد وقد قرأ الرغبة في عيون ولده: نحن جميعاً، لا نعلم ما يخبئ لنا المستقبل، فالغيب في علم الله، ولو كان لك نصيب يا ولدي بالعمل مع الأخ عطية فسوف تعمل.. على كل دعنا يا عطية نفكر في الأمر.

في هذه اللحظات أقبلت أم ورد تحمل الطعام، يساعدها كل من عمر وراشد أبناء الجيران.

يقول العم عطية: سلمت يداك أختي أم ورد، لقد أرهقناك معنا..

ترد أم ورد: أبداً، أنت ضيفنا وإكرامك واجب.. أهلاً وسهلاً بك تجمع الجميع حول الطعام، يقول عطية: الله.. ما أشهى الرائحة وما ألذ الطعم، فيرد أبو ورد: صحة وعافية، الحمد لله على نعمة الأمن والهدوء والسعادة في زمن تعاني منه البلاد والمدن المجاورة من حروب ودمار وفرقة وقتل.

وهنا رفع الجميع يديه عن الطعام، وكأنها بدأت مواسم الحزن.

قالت شروق: أفراحنا الصغيرة مستهدفة، ثمة قناص في كل مكان!، وكأنها تعيد ما قاله صدام العبد الله:

إذا رأيت سماء انجذبت

فاعلم أنها تمد يدها لتمسك طفلاً من يده وتخطفه

يقول عطية: نعم عم أبو ورد، سمعت أن هناك بعض المطالب

من أهل درعا تنادي بالعدل والمساواة، وأن هناك عدم استجابة لهذه المطالب، وإنني أخشى ما أخشى أن ينقلب الأمر وتتصور الأمور إلى عكس ما نتمنى وتجرنا هذه المطالب إلى التشتت كما في البلاد المجاورة.

يرد ورد بما قاله الكاتب (أيمن العتوم):

الحرب لا توقف الحياة.. ربما تغير اتجاهها.

ربما تضطر الأحياء إلى القبول بشروطها.

ربما تظل عدوتها الأولى.

ويظل المحبون للحياة في حرب مع الحرب.

لا تقل لي .. من ينتصر في النهاية

قل لي .. من يملك نفساً أطول؟!

ثم يردف قائلاً: لا قدر الله أن يحدث لنا ذلك، ففي أثناء سفري وتنقلي من وإلى العراق كنت أرى العجب العجاب، خاصة الأعمال التي على خلفية طائفية بين السنة والشيعة والأكراد والقوميات المختلفة، وتنظيم داعش، وبعض التنظيمات الأخرى التي لم نكن نسمع عنها من قبل، فأنا في كل مرة أسافر فيها إلى العراق وأقترب من نقاط التفتيش يصعد قلبي إلى السماء وينزل في الدقيقة عشر مرات خوفاً من أن أقع فريسة لمزاج أحد العناصر.

يرد عطية: معك حق يا ورد فهناك بوادر لبعض المناوشات لكن لا وجود للخوف بإذن الله.

نظر ورد في عيون والده وإخوته وأعاد النظر إلى عطية وكأنه يترجم

ما قاله ممدوح عدوان:

في الحارات المهجورة، بين صفوف الشعب المعزول

يترصدنا القتلة

ولذا لم اسأل نفسي يومياً: من منهم سيكون القاتل؟

بل كنت أقول: من منا سيكون المقتول؟

ينهض الجميع بهمة وحماسة كأنهم إلى المعركة يطلبون العذر.. يا أرضنا اعذري دمعنا، اعذري حرمة أيامنا الخاوية!!

يبدأون بغرس الأشجار، يضع أبو ورد غرسة الزيتون ويجاورها بغرسة التين، وهو يردد الآية: (والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الأمين» ويتمتم بين الآية والأخرى.. يا ترى هل بقي في العمر بقية لأرى تلك الغرسات أشجار باسقات؟!

ترد من خلفه أم ورد: أطال الله في عمرك.. ستراها إن شاء الله وتأكل وتطعم من ثمارها.. لا تفكر كثيراً هذه سنة الله في خلقه.. (زرعوا فأكلنا، ونزرع فيأكلون).

تنظر شروق إلى السماء الملبدة بالدمع حزناً على ما آلت إليه الظروف، وتسمع أزيز الطائرات، تنادي بصوت كساه الفرح:

تعالوا.. هيا.. تعالوا.. الشاي جاهز، حان وقت الاستراحة.

يسير أبو ورد إلى جنب عطية، فيميل عليه عطية ويقول: أشكركم على حسن ضيافتكم وكرمكم، لقد شعرت كأني منكم وأني بين أهلي.

يرد ورد وأبوه: لا تقل هذا يا رجل.. نحن أهل، لقد سعدنا بوجودك معنا.

يقول عطية لسيف: يا سيف أستحلفك بالله أن تفكر في العرض الذي قدمته لك، وأن تتصل بين قريباً لتخبرني إن وافقت على العمل معي في درعا، فبيت فيه كل هذا الدفء والحب حتماً سيكون أبناءه على قدر كبير من المسؤولية والأمانة.

ودع الجميع عطية، وعادوا إلى المنزل، إلا سيف عاد جسداً بلا روح بقيت روحه تحول حول ما دار من كلام، وضع رأسه على الوسادة في محاولة فاشلة للنوم الذي خاصمه، وبدأت تجول الأفكار في رأسه يعيد في خاطره ما قالته (وفاء المنصور):

تمضي الأيام وتقلب بالصفحات.. وتنفض الذاكرة..

وتجدد الذكريات، وتأتي سنون وتتوارى أخرى، لترحل تاركتنا خلفها نناجي أنفسنا بين جنبات الليالي المظلمة والأيام الراحلة..

يا سيف إن الأيام تجري.. يحادث نفسه، وحتى اليوم لم تحقق شيئاً مما حلمت به.

رج سيف رأسه، وقال: يجب أن أقنع والديّ بالسماح لي بالذهاب إلى درعا والعمل مع العم عطية، فهو إنسان طيب، شعرت بحديثي معه بحنان الأب، فحديثه يشبه حديث أبي، يجب أن أقنع أبي أن سفري إلى درعا لن يطول وسأذهب للعمل وتأمين تكاليف زواجي على الأقل، ثم أعود للعمل في الأرض، وأزيد من جودة إنتاجها.

«الصلاة خير من النوم» صوت الأذان يقطع سيل الأفكار في رأس سيف قام إلى صلاته، والأمل بموافقة ابيه كقصائد السياب..

صلى ركعتي الفريضة، وأغمض عينيه، رأى مكانه في درعا، يبحث في الشوارع الكثيرة والصحراء الإسمنتية، يجوب الأرصفة، يبحث عن الرزق خلف الأشجار، ويبني في خياله مستقبلاً من نور تحت الحصى..

ابتسم، وفتح عينيه المثقلتين كأنهما أكياس رمل وجرّ نفسه الجاثية على حلمها إلى السرير، وراح في نومه.

الزهرة الرابعة

رحيل الآخرة قدر مكتوب، وبقوة الإيمان نستطيع الصبر والاحتساب إلى الله.. أما رحيل الدنيا يكون فقدانه مضاعفاً بمرارة، لأن أنفاسهم الحية تمر علينا وتلفحنا ببرودة لتذكرنا بأماكنهم الفارغة، التي لم يملأها صعيق النسيان.

(وفاء آل منصور).

كان صباحاً دافئاً يغمر المنطقة هدوءاً، تداعب فيه نسمات الهواء العليل شجرة الياسمين فينثر ريحها في أرجاء المكان كأن الياسمين ينفث الروح في وجع العصور كأنها حلاوة الروح التي توحي بأن هذا الجمال هو آخر الصباحات الهادئة وأن القادم أسوأ..

اجتمع أفراد العائلة حول مائدة الإفطار كعادتهم، لكن سيف لم يكن كعادته كأنه المبتلى بالإرث الصعب، تقول عينيه ما لا تقوله كأرض خانها المطر، اختنق صوته بوجعِ الكلام، تنهد ثم قال:

تعرفون أنني أحبكم جميعاً، وأنني لا أستطيع العيش بدونكم، وأن

أجمل لحظات حياتي كانت ولا زالت معكم، وأن هذه المدينة عندي لها قدسية لا حدود لها، لكنني والله لم أنم ليلتي وأنا أفكر في عرض العم عطية، فقد جالت الأفكار بحلوها ومرها بسوادها وبياضها أروقة دماغي، وكيف لنا أن نعيش في ظل شح الإمكانيات وضيق الحال، وكيف نمني أنفسنا بالغد الجميل، والأوضاع في تدهور مستمر فقررت أن أوافق على عرض العم عطية، وسأسافر إلى درعا وأعمل هناك، بعد موافقتكم طبعاً، فلا نجاح لي ولا استمرار دون رضاكم، لكن قبل أن تعطوني رأيكم، اعلموا جيداً أنها فرصة للنهوض بمستوى معيشتنا، وسأعود للعيش معكم وسأتزوج وأكون أسرتي في حضرتكم.

يرد ورد على سيف ويقول: صحيح ما تقول، وأن قلوبنا ترفض الفراق، لكن يا أبي أنا أوافق سيف على قراره فالشاعر الشابي يقول:

ومن لا يحب صعود الجبال .. يعش أبد الدهر بين الحفر

فالحياة فرصة للمغامرة والتجربة، فأحياناً كثيرة يتجرع الإنسان الدواء في سبيل الشفاء، فدرعا مدينة جميلة طيب أهلها..

يقاطع الجميع صوت بكاء أم ورد وتنهداتها، وهي تقول:

يا سيف.. يا بني، وهل بقي في العمر بقية؟ لقد بلغت من الكبر عتيا، وقلبي لا يحتمل الفراق، والعمر يتدلى من شرفة الوجع يرسم المكان والزمان في عيون والدك، فلم يعد يقوى على العمل بمفرده ولا يسير إلا بمساعدة أحدكما أو باستخدام هذين العكازين، وورد دائم السفر إلى العراق، وأن تعلم ما آل إليه الفراق، وفجأة تقفز شروق لتحضن سيف، وتقول وهي تبكي، وسيف يهدهدها ويربت على ظهرها:

- لقد زرعنا في هذا المكان كما هذه الياسمينة، صبرنا على الفقر والبرد، نقتسم رغيف الخبز ومنه نملأ البطن، نعيش حياة هادئة.. صحيح أن الحزن مولود مثلنا ويكبر معنا، ويظل شاهداً على صمودنا، لكن يبقى الدفء العائلي والنظرة في عيون والدينا هي السعادة..

هنا يتنحنح أبو ورد، وكأنه يحمل وجع سورية في عقليته وبين أحباله الصوتية ويقول: سندي .. ولدي .. قرة عيني .. فلذة كبدي .. ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، افعل ما أنت مقتنع به وتريده نفسك، فنحن لا نستطيع - من شدة حبنا لك - أن نقف عائقاً أما تحقيق طموحاتك، خاطب عقلك وقلبك، واعمل ما يمليه عليه ضميرك..

- حسناً يا ولدي .. يقول سيف.

سأهاتف العم عطية، وسأشد الرحال إلى درعا، ولن أغيب طويلاً، سأبقى على تواصل وسأزوركم من حين إلى آخر.

تحاول شروق أن تحبس دموعها، لكن لا فائدة، تساقطت كحبات اللؤلؤ تهمس في أذن أمها: بعد هذا الكلام يا أمي .. أي طقوس من الكلمات يمكن أن تداوي الوجع.. ثم تقول: كان الله معك ومعنا وحفظك..

يقول ورد: حسناً، سوف أعمل كما ما بوسعي لتكون رحلتي القادمة إلى العراق بداية الأسبوع القادم، على أن تكون الأخيرة، وأنهي فيها التزاماتي ولأكون قريباً منكم وأرعى مصالحكم، وأمتع نظري برؤياكم.. وهنا ينشرح صدر أم ورد، وخفت حدة الحسرة التي كانت ستتملكها لو غادر الاثنان معاً..

مضت الساعات والجميع متناقض، منقسم من المنتصف تماماً، كأنه السؤال

المزروع في الخاصرة ما بين المهابة والرجاء، يسايرون الوقت كأنه الوجع.

وعلى موعد الغداء، وتحت شجرة السنديانة تحضر أم ورد وشروق سفرة كبيرة من الأطعمة يزينها ديك رومي محشو بالخضار، وكأنها حفلة وداع لسيف، وحفلة وداعه لبنيان أسرة مرصوص، قاوم زوابع الألم طويلاً كمضاد حيوي على الأرض، هذا هو الغداء الأخير.

يخاصم التذوق حواسهم، يتناولون الطعام على استحياء، وفجأة يخرج أبو ورد صرة قماش من خاصرته، ويفتحها ليخرج منها مبلغاً من المال يقدمها لسيف ويقول:

- ولدي .. هذا أقصى ما يمكن أن أقدمه لك، خذ هذا المال، تدبر به أمرك إلى أن تتيسر أمورك.

ثم تخرج أم ورد مصحفاً صغيراً وتقول لسيف: يا ولدي لا تدع كتاب الله يخرج من جيبك حتى يحفظك الله، ولا تنسِ أمك التي تعد الليالي لعودتك سالماً، فليالي البعد والفراق طويلة جداً تحتاج إلى قلب أوسع وعيون أعمق لتستوعبها.

من المهين للحياة أن لا نرى الشوق إلا في الفراق، وأن لا نقدر المحبة إلا بعد الغياب، وألا نجرؤ على رؤية الأحبة مثلما كانوا في حياتنا..

يعود الجميع إلى المنزل وقد دفنوا تحت جفونهم منابع الدمع، ووراء شفاهم رسم الابتسامة الخجولة، والضحكات المنخورة، إلا ورد لم يعد معهم فقد ذهب ليستدعي الجار (أبو سمير) سائق سيارة الأجرة، ليقل سيف إلى درعا.

يقبل سيف رأس أمه وأبيه، ويضمه أبو ورد إلى صدره، يحاول أن

يغلغل الشوق في قلبه، وكأنه يسقي الفراق أمصال الغياب.

يسلم سيف على ورد، تتراقص الدموع في عينيهما، أحدهما يشتهي البقاء، والآخر يشتهي ألا يغيب..

ينظر سيف إلى شروق فتتكوم نفسه كأنها جاثية على ركبتيها، يحملها بين أضلعه، ويرفعها.. يمسحه دموعها ويخلخل شعرها بأصابعه ويقول:

طفلتي.. بلسم جراحي، حاولي ألا تبكي وأن تنسي والديّ فراقي، ثم خلع خاتمه من أصبعه وأهداه لها.

يركب سيف السيارة، ثم ينزل مرة أخرى فيحضن أمه ويقول للجميع: سامحوني جميعاً، ولا تذكروا لي إلا ما أسرّكم، فأشقى أهل الأرض من يحمل ذاكرة قوية وذكريات حزينة..

ترد أم ورد: يا ولدي قلبي راضٍ عنك ما دامت الحياة، لا تنسانا..

تقفز الدمعات من عيون سيف فيهرب إلى السيارة التي انطلقت بعد إطلاق (أبو سمير) العنان لبوق سيارته، الذي كان بمثابة تشييع الفرح، وكأنه يوزع السلام والدمع..

تختفي السيارة عن الأنظار، وتبقى أم ورد متمسمرة في مكانها وكأنها تشتهي العودة، إلا أن شروق سحبتها بإلحاح إلى الجلوس تحت دالية العنب وجاء ورد وأبوه ليستأنسوا بحديث شروق الذي لا ينتهي..

عندما يعود العالم جديداً، وبريئاً يصير كل شيء ممكناً، حتى الخطأ يمكن أن يحدث بموجب البراءة وحدها. (بثينة العبسي).

الزهرة الخامسة

ثمة عيون لا ترى الضوء .. ثمة ذكريات لا تذكر
ثمة ابتسامات لا تمنح الفرح .. ثمة دموع لا تغسل الألم
ثمة كلمات تصفع .. ثمة روح لا عزاء لها.

(مرام المصري)

إنه يوم الجمعة، الثامن عشر من شهر آذار لعام ألفين وأحد عشر، تجلس أم ورد بجانب بئر الماء تبكي ألمها وتبث حزنها إلى الله، وتفيض دموعها بكلامها لزوجها عن طول غياب سيف، وانقطاع أخبار ورد الذي لم يعد في موعده المحدد من العراق، تقول:

يا أبا ورد، لم أسمع صداً يخبرني بأن الصباح خير، لم يقل أبناءك شيئاً يمنحني الحياة، يقول أبو ورد:

- تفاءلي بالخير، الغائب عذره معه، فقد يكون وجد عملاً أو طرأ

لديه شيئاً استوجب بقاءه.

وفجأة يسمعان صرخة مدوية من داخل المنزل، يحاول أبو ورد النهوض، فلم تساعده عكازه، هرعت أم ورد إلى المنزل ولحق بها أبو ورد، وإذا بشروق في حالة صدمة لا تقوى على الكلام، والمذياع يبث عبر الأثير أغنية: «موطني .. موطني».

ما بك يا شروق؟

تحاول شروق إخفاء الأمر، وبعد تكرار السؤال، وحالة أم ورد المشدوهة تنطق شروق وتقول: سمعت الأخبار وهي تعلن عن اندلاع مواجهات ومظاهرات في درعا لناشطين من المعارضة بعد صلاة الجمعة أمام المسجد العمري وقد حدث فيها إطلاق للنار بشكل عشوائي على المتظاهرين مما أدى إلى سقوط أربعة قتلى، وتم إلقاء القبض على مجموعة من الناشطين من بينهم سيف.

وهنا.. يتأرجح العكازات من بين يدي أبي ورد ويسقطان أرضاً، ويشعر بدوران الأرض، وأن سقف البيت قد سقط على رأسه..

تصرخ شروق .. أبي .. أبي ..

تحاول مع أمها تحريك والدها، لكن دون جدوى، تسرع شروق لإحضار العطر وترشه على وجهه، لكن لم يتغير في الأمر شيء.. تضغط أم ورد على صدره وتمسك شروق بيده، لكن الجسد الدافئ أصبح بارداً.. الروح فاضت إلى بارئها..

انهارت شروق على الجدار، وتكومت أمها بجوار جثة زوجها ياااالقساوة الحال .. أين نحن الآن؟

ما الآن؟ .. ما الغد؟

ما الزمان؟ .. ما المكان؟

ما القديم؟ .. ما الجديد؟ انتهى كل شيء..

لن تزهر الياسمينة بعد اليوم، ستموت السنديانة حزناً، غادر الفرح المكان دون رجعة..

تصرخ شروق: لا تمت يا أبي؟؟ لمن تتركنا؟ تضمها أمها إلى صدرها وتشرد في نظراتها وتسافر في شريط ذكرياتها، وحالها يترجمه (أحمد جمعة) حين قال:

حزني ليس ثقيلاً كالحياة.. ولا خفيفاً كالموت
لكنه كاف جداً ليجعل مني جثة.

يأتي الجيران على صوت الصراخ والعويل، وتأخذ النسوة شروق وأمها إلى خارج المنزل، ويحمل الرجال أبا ورد إلى المركز الصحي القريب، لكن بعد فوات الأوان .. مات أبو ورد..

طعنات الزمن لم تعد في الظهر..

كلها أصبحت في الصدر..

هكذا يشيعك الموت بطيب خاطر..

بدأ الجيران بالتجهيز للصلاة على الجثمان وموارته الثرى في مزرعته،

وتحت شجرة السنديانة بالتحديد حسب وصيته.

بدأت لحظة الوداع لحظة الوجع المعتق.. لحظة ما قال كنفاني:

الموت يا إلهي!

أن نراه قريباً إلى هذا الحد، وأن ننتظره ليل نهار.

لحظة الفجيعة التي وصفتها سوزان عليوان، حين قالت:

ثمة أشياء.. لا نعتادها

نموت كل ليلة مؤقتاً

لكن الموت الأخير يفجعنا دائماً.

انتهت أيام الاستئناس بالمعزين من الجيران والأقارب والأحبة، وجاءت رصاصات الذاكرة، لترسم كل ذكرى مع أبو ورد، تحدث شروق نفسها:

ما العمل يا شروق؟ أنت وأمك وحيدتان الآن، لا معيل، لا سند إلا الله وحده، سيف في المعتقل وورد انقطعت أخباره، ومهما حاولت أن أتمالك قواي وأن أجدد عزمي لن أستطيع أن أكمل المشوار وحدي.. كيف سأداوي جرح أمي الذي لن يردم مهما طال الزمن؟

كل الذين وضعت قلبي متراساً خلف أبوابهم.. رحلوا

كل الذين لوحت لهم بالوداع، تركوا صخور أوجاعهم فوق صدري.. (محمود عبدو)

إلهي.. أفوض لك أمري..

لا قريب .. لا حبيب .. لا من يشارك الوجع، فمنذ أن غادر جدي لواء الاسكندرونة، واستقر بنا الحال هنا في الرقة، ونحن نرافق الليل كعتمة واحدة..

لماذا كلما تفتحت وردة في يد طفل.. طاف حول عنقها ألف منجل سأخبر كل الأطفال ألا يكبروا، العمر سيء جداً بعد الثامنة..

مضت الأيام، ووحدها المناديل التي ورثت عيون شروق وأمها، إلى أن تهالكت صحة أم ورد وأصبحت كالنورس المذبوح، لا تستطيع النوم..

أصبحت لا تلقي بالاً لشيء، وتمارس كل الأشياء بترف، وكأنها تلوم صبرها الذي قاتل الحياة لتصل إلى هذا الوجع سالمة.

تقول لابنتها: تصوري يا شروق حجم ما مات فينا كي نعتاد على كل هذه الحسرة ليصبح لدينا الوجع أسهل من شرب الماء.

- أماه .. يكفيك حزناً، الحزن والسواد لا يغير الأحوال، ألا يكفينا ما نسمع وما نرى!! والدي رحمه الله كان مؤمناً بقضاء الله وقدره محبوباً بين الناس ونحسبه إن شاء الله في الجنة في مقعد صدق عند مليك مقتدر..

أعلم جيداً مقدار الوجع في رحيل الأحبة، فهو الخنجر المزروع في خاصرتنا، لكن قضاء الله وقدره عزاءنا الوحيد، وأنت من الصالحات يا أمي، فلنتحايل على الأسى ونسخر منه لتستمر الحياة..

تضم أم ورد شروق إلى صدرها بعدما شقت الدموع طريق خدها...

يا لنبل القلب الحزين الذي لا يمنعه حزنه على أن يصدر حناناً.

- طفلتي منذ أن ولدت، وأنا يتولد في داخلي شعور يومي بأنك ستكونين سندي بعد الله في هذه الحياة، وكلما كبرت أيقنت أنك تسبقين عمرك الزمني بكثير، يا بنيتي للغياب مخالب، ولم يبق لي غيرك لتعيدي السرور لقلبي كلما خاصمه بابتسامتك الجميلة..

- أطال الله في عمرك يا أمي.. ولنتهادى أرواحنا للحلم، ولنعمل كل ما بوسعنا، لنقاوم الحياة، ولا ندع أيلول يحمل لنا مدامعه وشكواه.

أعتقد يا أمي أن روح والدي معنا، حتى وهو يرقد تحت التراب فإنه يشعر بنا، وأما سيف فقد وعدني جارنا (أبو وائل) بأنه سيحاول عن طريق قريب له تتبع أخباره، والتوسط لإخراجه من المعتقل، وإن شاء الله سيفك أسره قريباً..

آه آه آه يا شروق، متى هذا؟ كل شيء حولنا أصبح ينقصه الحياة والحزن على أخوتك أصبح له أكثر من وجه وأكثر من وجع..

قولي يا رب يا أمي.. ليس هذا على الله بعزيز.

تداري شروق دمعها وتهرع إلى الداخل بحجة قضاء حاجتها، وتلقي بنفسها كقنبلة على سريرها وتجهش بالبكاء، وتغرق في دمعها.. وكأن حالها يصفه (ناصر قواسمي) حين قال:

لم يعد في ساحة الرؤية شيء.. تلاشت الوجوه والتفاصيل المثيرة من حولي.. سافرت الأشجار.. وهجت الحمامات عن سطوح الذاكرة..

والحقول التي كانت تتمدد على اتساع ساحة الرؤية لبست ثيابها
وراحت تعدو في الخلاء..

لم يعد في ساحة الرؤية شيء سواك يا وجهي..
وأنصاف المرايا التي تريني بعض من تفاصيلك المزدحمة بالذهول
لم يعد ما يثير القلب في القلب سوى الأسفلت الوحيد يشبهني..
وهذا الوجه الذي لا يكاد يعرفني..

الزهرة السادسة

لم يتركوا لي رصيفاً أسير عليه.. جسراً أعبره
شجرة أستظل بها.. حلماً أتذكره.. دمعة أذرفها
دون أن أدفع الثمن (محمد الماغوط)

يأتي الصباح كعادته ويغادر المساء دون حروف تذكر، دون مواسم فرح تذكر وما زال في قلب شروق عتب على أبيها.. لماذا لم يعلمها الحياة مع الذئاب..

الزمان مطلع عام ألفين وثلاثة عشر، يتأهب المكان كله للموت تتمشى الأحلام والأيام كجثث في الشوارع، تعتاد النساء الدموع كظلها، أصبحت الذاكرة والألم توأمان، فقدن أغلب نساء الحي أزواجهن في الحرب..

سورية بمجملها وجمالها في حالة غليان، والمعارك تحصد الأمل والفرح في كافة المحافظات من الشمال إلى الجنوب، وتنثر الجثث من المدن إلى الصحراء والهجرة القسرية أصبحت وجهاً آخر للإنسانية، لا

أحد ينظر إلى أحد، الكل ينظر إلى بعضهم، يأس يضيء ولا يحترق.

اشتد وطيس الحرب التي خطط لها من لا يموتون فيها، وأنجبت أسماء فصائل لا حصر لها ما بين معارضين، ومؤيدين، وتجار، ومنافقين، وثوريين يتطفلون على الهدوء.. آلاف الأبرياء قتلوا.. آلاف الأسر هجّروا بدم بارد أو بلا دم.. إنه الربيع الأسود يعود بالدمار.

تتمتم شروق مع جارتهم أم وائل، وتقول: ألم يأت العم أبو وائل بأي خبر عن أخي سيف؟

- الأمر أصعب مما تتخيلي يا ابنتي، لقد اختلط الحابل بالنابل ولم يعد سهلاً الحفاظ على الروح كما كان.

- لا ندري ما إذا كان ورد أيضاً على قيد الحياة، أم أنه معتقل كأخيه؟ أمي لم تعد تتحمل هذا الضياع، لو أنها تعرف مصيريهما لاستراحت.

وهنا تسمع أم ورد حديث شروق مع جارتها، فتقول: القسوة يا ابنتي أصبحت متبادلة بين الصخرة وقلوب البشر، ثم تذهب باتجاه شجرتي التين والزيتون اللتان زرعهما أبا ورد قبل وفاته، وكان يتمنى أن يقطف ثمارهما وتقول: كنا نبحث عن عيش كريم، أصبحنا نفتش عن وطن وخبز، فضاع الوطن ولم نجد الخبز.

تنهدت أم ورد وألقت بالعصا التي كانت تحملها جانباً وافترشت الأرض كأنها تتوسل إليها أن تبتلعها.. هرعت شروق نحو أمها هي والجارة أم وائل..

- أمي أمي .. ما بك؟ نحن بخير.

- أي خير يا شروق ولم يعد الإنسان إنسان وصار مرشحاً للقتل في كل مكان يااااارب، ماذا ارتكبت في حياتي ذنباً لأعيش شاهدة على كل هذا القتل!!

- تقول أم وائل: الحرب فاجعة لا يدفع فيها الثمن سوى البسطاء، ولا تموت فيها إلا أحلام الصغار وأصوات الأحبة ووجوههم.. أعانكم الله اسمحوا لي الآن سأذهب لأجهز البيت قبل أن تغيب الشمس.

- شروق عزيزتي إن احتجت أي شيء.. لا تترددي.

- أشكرك خالة أم وائل .. طريقك سالماً إن شاء الله.

- تعالي يا أمي ندخل البيت، نجهز المصباح قبل أن تغيب الشمس، ونأكل ما نقيت به أنفسنا..

- أتدرين يا أمي، ما هو أصعب شيء في الحياة؟

- أصعب شيء في الحياة يا ابنتي هو انتظار الخبر السيء في أي لحظة.

- بل إن أصعب شيء من وجهة نظري يا أمي هو أن تنتظر الموت في أي لحظة.. مع كل رمشة عين.. درعا تسيطر عليها المعارضة، وأجزاء كبيرة من الموصل تسيطر عليها عصابات داعش ونحن هنا في الرقة التي تمطر سماؤها ناراً، تعيش كابوساً وليلاً طويلاً لا نهاية له، وصباحاً نادراً ما يتنفس.

البلاد التي حفظناها عن ظهر قلب

قهراً قهراً

أغنية .. أغنية ..

لم نحفظها عن ظهر حرب .. (هاني نديم).

أراحت شروق أمها على فراشها، وذهبت إلى المطبخ الذي طالته قذيفة طائشة تجهز المصباح، وهي تردد:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة	فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي	ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة	تبخر في جوها واندثر
فويل لمن لم تشقه الحياة	من صفقة العدم المنتصر
كذلك قالت لي الكائنات	وحدثني روحها المستتر

تردد وتناقش الأبيات، وكأن أبا القاسم الشابي يرددها الآن، فنحن في حيرة وأي حيرة، ها هي فصائل المعارضة على مشارف الرقة وقد سيطرت على أماكن حيوية حولها، وها هو نهر الفرات يمتزج بدماء الأبرياء أما المصير فهو مجهول..

تنادي أمها، فتسرع شروق لأمها.. ما بك يا أماه؟

- بنيتي تابعي (راعي المصائب) تقصد المذياع لعلك تسمعين بأي خبر عن سيف أو ورد، فإنني اشعر بدنو الأجلٍ، وأمنيتي أن أراهما قبل الرحيل، ومهما تكن الأخبار سيئة فلا تخفيها عليّ، فأنا مؤمنة إيماناً راسخاً بقضاء الله وقدره.

اقتربت شروق من صدر أمها واحتضنتها كمن عاد من غربة، تمسح أم ورد رأس شروق وتقول: أوجعتني قلبي يا ابنتي، فخوفي عليك أكثر من شوقي لمعرفة أخبار أخويك .. الحمد لله .. الحمد لله ..

- أتعلمين يا شروق؟

- ماذا يا أمي؟

- عندما قدم أبوك -رحمه الله- لخطبتي كنت في العاشرة من عمري، كنت ألعب في الشارع مع صديقاتي (الحجلة)، فجاءت أمي وأخذتني من يدي وغسلت لي وجهي وبدلت لي ملابسي، وبعد أسبوع تزوجت أنا وأبوك..

كان رجلاً بألف رجل، لا أتحدث هنا عن القوة البدنية والشجاعة، بل عن حسن المعاملة، فقد صبر على طفولتي سنوات، حتى أنجبت له ورداً..

كان حال المعيشة أشبه بهذه الأيام، لكن ليس عن قهر وظلم بل عن ضيق حال وعسر، وفي أحد الأيام بعد عودته من عمله، حيث كان يعمل في قطف العنب مع أحد أصحاب جدك -رحمه الله- طرق باب منزلنا الخشبي، فخرج ليفتح الباب، فإذا به رجلاً تظهر عليه ملامح العناء من السفر، يطلب الماء، فأدخله أبوك ورحب به وقدم له الضيافة وتعرَّف عليه، فقد كان تاجراً من اللاذقية، يبيع ويشتري البضاعة منها وإليها، فعرض على والدك أن يسافر معه إلى اللاذقية ليعمل معه في التجارة، وبعد تفكير طويل وافق وسافر معه، وبدأ العمل بكد ونشاط وكلما جمع مالاً اشترى فيه أرضاً..

لهذا السبب يعتصر قلبي على سيف الذي فكر بنفس تفكير أبوه، لكن أبوك عاد، وهو لم يعد..

في إحدى صباحات أواخر نيسان من العام 2013م، كانت أم ورد تنشر ما تبقى من ملابس بعدما اشتد الحصار وزاد الوبال، وضاق الحال وعزت اللقمة، بينما كانت شروق تروي الياسمينة التي لم تكف عن بث رائحتها الجميلة رغم رائحة تخثر الدماء في كل مكان، وهي شاردة الذهن تفكر..

- لا جديد من الأخبار، سوى أخبار الموت.. ما بال الأوطان تقتل أبنائها ما بال الأوطان تلفظ أبنائها، وترمي بهم في غياهب اليم، ما بال الطغاة مزايدون؟؟

وكأنها تترجم ما قاله (جوزيه سارماغو):

يا لعالمنا المشؤوم

أرى التشاؤم هو فرصة خلاصنا الوحيدة

أن يتفاءل المرء - في أوقات كهذه - ينم إما عن انعدام الإحساس أو عن بلاهة فظيعة.

وفجأة يتعالى صوت أزيز الرصاص في جميع أنحاء الرقة، وتتعالى أصوات الزغاريد، فتسرع شروق باتجاه الطريق المؤدي إلى هضبة مرتفعة لتشاهد ما يحدث، وإذا بمئات الأهالي يهتفون: الرقة بداية النصر .. الرقة حرة .. الرقة بوابة المجد يرافقهم جموع من مقاتلي الجيش الحر، حاولت أن تسأل أحد المارة عما يحدث فأجابها: الرقة أصبحت تحت سيطرة الثوار بشكل كامل، والكل يحتفل بذلك.

ترجع شروق إلى والدتها، لكنها ليست بمستوى الفرح الذي شاهدته، تخبر أمها أن الرقة أصبحت مدينة تحكمها المعارضة. لم يتغير

شيء في تقاسيم وجه أم ورد، فتسألها شروق: ألست سعيدة يا أمي؟!

- آه آه آه .. بعد هذا البلاء العظيم يا ابنتي.. أي طقوس من الكلمات والزغاريد يمكن أن ترمم هذا الخراب؟! يموت الحي فينا شيئاً فشيئاً وحين لا يبقى فيه ما يموت، يقال: لقد مات، من يعتذر لموتانا؟

بعد ثلاثة أيام من إعلان الرقة حرة، وفي إحدى نشرات الأخبار الإذاعية يعلن المذيع أنه قد قام تنظيم داعش بتعيين (الرقاوي) أميراً لفوج الفتوحات المتجهة إلى تحرير باقي مدن محافظة (نينوى)، وقد سمعوا عنه بأنه شخصية لا تعرف الرحمة، فاقد الآدمية، شارك في عمليات التنظيم في شتى المناطق، وفوق كل هذا هو شخصية محنكة تجيد المراوغة، أسره التنظيم في العام 2011م أثناء قيادته لحافلة متوجهة إلى الموصل، ولما اكتشفوا سماته القيادية ضموه إلى صفوفهم، وتدرج إلى أن أصبح أمير فوج الفتوحات.

انتهى الخبر هنا، ووقع كالصاعقة على رأس شروق وأمها، ولم يخطر ببالهما إلا ورد، ضاق صدر أم ورد وبدأت تحاول أن تلتقط أنفاسها وتخرج بعض الكلمات توصي بها شروق لتحافظ على نفسها لكن صدرها كان يحتاج إلى قلب أكبر ليتسع لكل هذا الأسى!!

دخلت في غيبوبة، حاولت شروق أن تستعيد وعيها، لكن دون جدوى هرعت إلى الشارع، تستنجد بالجيران، فجاء بعضهم وبسرعة الريح نقلوها إلى المركز الصحي الذي تهالك من كثرة ما مر عليه من ضحايا، وتم تحويلها بسيارة الإسعاف إلى المستشفى الرئيس، وأدخلت

إلى العناية المركزة لأسبوع تقريباً، وكلما مر الوقت ولم تعد إلى وعيها فقدت شروق الأمل في شفائها، إلى أن جاءت لحظة الفاجعة .. اللحظة التي يعاند فيها نيسان الطبيعة، اللحظة التي يتنكر فيها الياسمين للورد ويتحول فيه اللون الأخضر إلى الأحمر اللحظة التي تبلل فيها دموع تشرين أوراق الخريف.. توقد الحزن.. ماتت أم ورد.

يخرج الطبيب، بعد أن استخدم جهاز الصعقات الكهربائية لعله يسترد نبضاً من أزقة القلب، لكن انعدام الألوان كان سيد الموقف، يضم شروق إلى صدره ويقول: بنيتي من لا يرى الأحزان لا يرى الفرح، رحم الله أمك وأمد في عمرك.. الموت حق.

وهنا كان قضم القلب، صرخت شروق .. أمي، أمي لا تتركيني، ضاقت بي الدنيا فمن لي سواك؟! وتسقط مغشي عليها.

كم كان صادقاً زياد خداش حين قال:

كلما ماتت أم في هذا العالم

تأخرت أمي في فتح الباب لي..

دفنت أم ورد تحت الشجرة التي أحبت، وبجوار رفيق دربها، وسط دموع منهمرة وصراخ مع شروق كتمته آهات نيسان.

سلام على الصابرين المفجوعين..

سلام على من هزم اليأس، وأكل الوجع خشاش قلبه..

وما زال ينتظر غداً.

تمر الساعات، تجلس شروق في الغروب تسامر والداها، مسكونة

بالغربة يجري المقصود بأوردتها حزناً، تقول لوالدها: افرح يا أبي، أتتك أمي، أما أنا والسنديانة والياسمينة فستنبقي في انتظار الورود والسيف..

أنا المبتلى بالإرث الصعب
ماتت أمي وتركت لي أن أرى موت إخوتي..
وذهب إخوتي إلى الموت وتركوا لي الحزن..
وهرب الجنود إلى الجبهة وتركوا لي الهزيمة..
وعذر الأهل واحدهم بالآخر..
وتركوا لي الخزي والعار..

(ممدوح عدوان)

الزهرة (7)

الاستعداد للموت .. أليس موتاً مضاعفاً؟

أنت تمشي كجثة في الشارع.. وكل شيء حولك مثلك

إلا الضحايا وحدهم يختلفون عنك

فدمك يجري داخل عروقك بخطوات مرتبكة..

ودم الضحايا يركض واثقاً دون تعب..

من شاشة إلى أخرى

يركض كطفل فوق وجوه المشاهدين!!

(وليد يزبك)

آذار 2014م، تسمع شروق خبر مفاده مهاجمة الجيش الحر سجن درعا المركزي، ويفرج عن جميع المعتقلين السياسيين.. وهنا يسري الأمل من جديد في أروقة النفس، فرغم خيبات الأمل، والإخفاقات وزوال

الوهم هل ستتواصل الحياة؟!

هل سيعود سيف إلى الرقة أخيراً؟ هل سيخبوا أجيج أشواقي باحتضانه؟ هل ستترمد نار الحزن بعودته؟

سعادة غامرة على وجه شروق المتعب، الذي أرهقته الأحزان وكأنها تستجدي قول (عائشة الحطاب): أيها الفرح العظيم، أنا ابنتك الضالة في زمن الغابات.

تسأل نفسها: إن عاد سيف وسألني عن والديَّ، وعن ورد، ماذا سأخبره؟ لا يهم ماذا سأخبره، المهم أن يعود ويطلع الصبح بعد أن حملت الحزن أعواماً، فكل وجوه الناس تذكرني به، ووجهه يذكرني بكل شيء، لقد مللت الوحدة، تحملت ما لا أطيق، كتب عليَّ أن أدفع ثمن كل ما مضى وأيضاً كل ما سوف يأتي.

لاحظت الجارة (أم وائل) إفراط شروق في الحزن مما انعكس على صحتها ونشاطها خاصمت الابتسامة شفتاها، نخر الألم والانكسار أعماقها..

- شروق حبيبتي حالك لا يعجبني!! ألا يكفي حالة العسر التي تعصف بنا جميعاً، ألا يكفي شح الماء والطعام وعدم الشعور بالأمان، ألا يكفينا أن أصبحنا نستجدي غيرنا لنأكل، كفاك حزناً يا ابنتي، ولن أتركك اليوم حتى تأتي لتعيشي معي مع بناتي (نوف، سعاد).

- خالتي أم وائل لا تلوميني على إفراطي في الحزن، فأنا أريد أن أفرغه كله لعلي بعودة سيف أعثر على ضحكة مخبأة في أعماقي .. فقد

تفتت مني الأمل، وعدتُ مع جحافل المأساة، نصيبي كغيري من ضحايا الحرب نكسات توزع على أمه، الموت يدور حولي ولا يصيبني، ألا يحق لي الموت ما دام لا يحق لي العيش؟!

أما عن طلبك أن أعيش معكم، فهذه أمنيتي فقد أكل الخوف أوردتي وخشيت أن أطلب من احد أن أستأنس به لما أرى من ضيق الحال على الجميع..

أجهشت بالبكاء واحتضنت أم وائل وقالت: خالتي خذيني حيث للأطفال قلوب جميلة، حيث للأمل أجنحة من جديد..

عاشت شروق أسابيع قليلة في بيت أبو وائل، مستأنسة ببناته وزوجته التي لم تفرق بينهم، وعاملتها كإحداهن، بل وكانت تخصها في بعض الأمور لخصوصية حالتها التي تزداد سوءًا يوم بعد يوم.

تمضي الأيام والغائب لا يعود، وبدأت الأحوال تسوء في البلدة، وقد عزم أبو وائل وعائلته مغادرتها، وقد عرضوا على شروق أن ترافقهم، لكنها رفضت على أمل أن يعود سيف...

عادت شروق وحيدة، يلفها الصمت، تدفع ضريبة بقائها صبراً ومشاعر عادت لتدرك أنه لا يمكن أن ننسى طفولتنا، على اعتبار أنها ألوان الطيف بذاكرتنا، لكنها بالنسبة لها بقع سوداء كلما لمع أحدها تبسمت للشقاء.

مؤلم جداً حين يمتلئ إناء القلب بالحنين

والذي تنتظره يعتكف الغياب (فهد العودة)

حزيران 2014م، بواية الحزن، بداية النفق، لقد تم الإعلان عن سيطرة داعش على محافظة نينوى ومدينة الموصل في العراق، وشروق كثر الغائبون عنها حتى أصبحت لا تعرف من تنتظر؟!

يأتي هذا الخبر على مسامع شروق، كأنه للحظة قذيفة، وكأنه للحظة انتحار مزيج من الأحاسيس لا يترجم شعورها.. هل سيعود ورد؟

لقد أصبح لورد أهمية كبيرة ومكانة رفيعة في التنظيم كما سمعت، وسيف كذلك الذي تبوأ مكانة عالية في الجيش الحر، ولكن لم لا يعودان ودرعا كلها تحت سيطرة المعارضة؟؟

لم أعتقد في يوم من الأيام بأن الموت أهم من الحياة..

ولكن لا يساورني أدنى شك بأن الحنين أهم من الموت والحياة (فيروز مالك).

أواخر عام 2014م، اشتعلت الرقة أزيز الرصاص في أوج حالاته، الحرائق تثقب جدار الصمت، انفلات أمني، نزوح جماعي نحو دير الزور وحلب.. يا إلهي ماذا يحدث؟ تحولت الرقة إلى مقبرة جماعية!!

دخلت داعش مدينة الرقة سيطرة عليها بعد معارك شرسة مع فصائل المعارضة وانسحاب فصائل أخرى..

سلام على كل شيء.. لا أحد يشفى من خيباته

كل ما في الأمر.. أن بدأت الخيبات تختبئ نحو العمق.

القذائف تأوي إلى بيوت الفقراء، وكأنها تعرف أنهم أكثر حفاوة من

الأغنياء، وهم لا يخيبون ظنها بل يقاسمونها قلوبهم قبل الرغيف..

تاريخ هذه المدينة مثقل بالهموم، كأيام شروق التي لم تعد تاريخاً، فقد عاشت المدينة أبهى وأزهى أيامها في العصر العباسي، حيث قام الخليفة المنصور بتوسعتها ليعلنها هارون الرشيد لاحقاً عاصمة ثانية للخلافة، ومع الغزو المغولي تم تدمير الرقة وحرقها بشكل أشبه بما حدث في بغداد من تدمير للملامح الحضارية، وحرق للكتب، ومسح للوجود الإنساني، وها هي الرقة تمر بنفس المخاض مع الاختلاف في الزمان والأشخاص، وكأن التاريخ يعيد أوجاعه.

أما نحن فقد أنجبتنا الشوارع صدفة

الوطن لا يرغبنا ليحمل أسامينا..

رغم أني نسيت ذراعي في ساحة الحرب

ورحت أركض خلف النجاة بذراع يتيمة

وحدهم الشهداء يشهدون على ذلك..

وحدها شجرة العائلة تأوينا .. (فهد العودة).

الخوف يكسو شروق حتى الرمق الأخير، الرعب يتجلى في أبهى صوره على وجهها، فقد سمعت ما سمعت عن هذا التنظيم الذي لا وضوح لمبادئه -إن وجدت- الأمور في طريقها إلى الهاوية.

تفاوض شروق الليل أن يمضي، خاصم جفنها النوم، رغم الهدوء بعد الجنون الذي ساد النهار، تقف خلف ساتراً مما تبقى من بيتها ترقب

أي حركة، لا تعلم ما الذي يخبئه القدر لها، هل ستكشف الشمس عن أنوثتها لها ويكتُب لها النجاة، أم ستقع فريسة الظلم والقهر؟

صوت الرصاص ما زال يسمع بين الحين والآخر وعلى مسافات متباعدة تارة ومتقاربة تارة أخرى، والخوف ينخر عظم التي لم تعرف معنى الراحة منذ أن فارقت أهلها، تلمح ضوءاً شارداً من بعيد، وكأنها تستنجد به للخروج من دائرة الرعب.. وكأنه جدد الأكسجين في رئتيها بعد أن أيقنت أن سكين الموت قادمة لا محالة..

تحاول أن تستقطب الأمل من أشعة الضوء، لكن وعيها يرفض تقبله فقد يكون عدواً لا حبيباً، يعايشها محمود درويش في خيبتها، حين يقول:

حين نعتاد الرحيل مرة..

تصبح كل الأمكنة سفراً نقسو عليه ونميل

كلما ماتت بنا الريح

ونعتاد بكاء الأحصنة..

حين نعتاد الرحيل مرة ..

تصبح كل الأزقة لحظة للقتل..

ومتنا كم متنا..

وكان الكهنة خدماً للسيف منذ المعبد الأول

حتى آخر الثورات..

انتصف الليل وتعاظمت مشاعر الخوف، وازدحم الظلام حتى

صار ثورة، اختمر شعور شروق حتى تلجلج لسانها، وفي تلك الدقيقة حدث ما لم يتوقع

صوت يائس ينادي .. يا رب .. يا رب ..

هل من أحد هنا؟ إني أموت..

جمعت شروق قواها التي فتتها الخوف، وسبحت في الخلاء متبعة أشباح الصوت الهزيل إلى أن تعثرت بجسم فتاة تشتهي الماء، يخيم عليها كل ألم (الجوع – العطش – الخوف – ..) تشتهي أي شيء حتى لو كان رغيفاً محشواً بالرصاص..

هبطت شروق على ركبتيها، تحاول أن تفك شيفرة لسانها، وبعد أن زردت ريقها عشر مرات، قالت: من أنت؟ وكيف جئت هنا؟ استنهضت تلك المشدوهة من خوفها ودخلت بها إلى بعض الجدران المهشمة، وبللت شفاهها بالماء، ليس خوفاً من عطشها، بل لأن الماء لا يكفي شربة واحدة...

بللت كسرة خبز عفا عليها الزمن ببعض الماء وحشت به حلقها لتستعيد قواها.. وبعد هنيهة حاولت شروق أن ترى من ملامحها شيء، فلم تستطيع قالت: أستحلفك يا رفيقتي بالوجع.. من أنت؟

– أنا ابنة مختار قرية في الريف المنحدر من الرقة، نجوت بأعجوبة ممن أوقعوا القتل والتعذيب والتشريد بحق أهلي، فمشيت كل هذه المسافة وأنا أعلم علم اليقين أني قد لا أعيش.. ومن أنت؟

- أنا رفيقتك بالمصير.. دعينا ننتظر قدر الله..

صوت المؤذن يهدهد مسامع شروق التي راحت في نومها دون شعور لساعة أو أقل، تحاول أن توقظ من لا تعرفها، لكنها لم تهن عليها فتركتها نائمة وتوضأت ببعض الماء المتبقي والذي نزحته من البئر الخارجي قبل يومين.. صلت إلى الحد الذي لم تجف بها دموعها..

صباح الخير .. هنا الرقة ..

مدينة لم تنم شهر الأمس ..

لا لأنها تحتفل بفوز برشلونا على ريال مدريد

فهي لا تعرف من الليل سوى حصار اللون الأسود.

ولا لأن حفلات التانغو طيرت النوم من عينيها

بل لأنها كانت تخمر الوجع..

ذنبها أنها كانت جميلة جداً، لا تشبه أي ضحية، مدينة موغلة في الوجع حتى النخاع.

تحاول شروق أن تململ القوة من جسد رفيقتها، لعلها تستعيد جزءاً منها

- عزيزتي استيقظي .. كان بودي ألا أقلق منامك، لكن الوضع لا يحتمل، هناك أصوات لآليات بالخارج...

وهنا انتصبت تلك الغريبة كأن الريح تحتها.. وعيونها تموج بلا وعي..

- لا تقلقي سيكون الأمر خيراً إن شاء الله، وهنا تتأمل شروق وجه الغريبة فتلمح حجم التعب الذي يشوبه.. فتأخذ بيدها للخارج ليستطلعوا

المكان، ولتعرفها على والديها اللذين يرقدان تحت التراب تحت شجرة السنديانة..

تتكئ الغريبة على كتف شروق الذي أرهقه الحزن وتخرجان إلى الكرم تعرفها على والديها، ويجلس بجوار القبرين تحدث والديها عما جرى؟ وتطلب رأيهما والمشورة بما ينبغي أن تفعل؟

الغريبة.. تكور الدمع على خديها حزناً على شروق، وتذكر لفقدها أفراد عائلتها .. وفجأة ودون سابق إنذار .. إطلاق نار كثيف في الهواء وتقدم آليات تجاه الكرم ومجموعة من المسلحين يتقدمون، بعضهم يحمل أسلحة، وبعضهم يحمل سيوفاً، تختبئان قبل أن يلمحوهما خلف شجرة السنديانة..

تجمع المسلحون بالقرب من المكان وافترشوا الأرض، وبدأوا الاستعداد للإقامة بعض الوقت.. خلعوا جعبهم وألقوا بسيوفهم وبدأوا بجمع الحطب لإشعال النار وتناول الطعام، الذي لم تتذوقه الفتاتان كما ينبغي منذ أسابيع.

يعانق الرعب أرواح الفتاتين، تحملان أقدام متثاقلة بالخوف، عيون ممتلئة بالدموع باللحظات المسروقة والضحكات المنخورة والكلمات المفقودة، والمواعيد القديمة، وكأن (رياض الحسين) يصف حالهما حين يقول:

بين يديك أيها العالم

نحن لسنا سعداء..

بين يديك .. أيها العالم

نحن لسنا تعساء ..

نحن لا شيء البتة.

تسترقان السمع لضحكاتهم وكلماتهم المسموعة، يقول أحدهما لآخر:

- ما أجمل هذا البستان !!

- صدقت أبا القعقاع أرض حمراء وأشجار وافرة، يطل على جميع أنحاء المدينة، يبدو أنه المكان المناسب لبناء ثكنة عسكرية أو برج مراقبة للتنظيم.

- تمام.. إذهب أنت والأنباري والشيشاني وأحضروا لي أصحاب هذا الكرم بسرعة، لقد أصبح لنا هههههـ.

- أمرك مطاع سيدي في التو واللحظة.

يستبيح أبو القعقاع ومن معه ثمار الأشجار، كما استباحوا القلب والمكان يصافحون حزننا بفرح، يمسحون وجه المدينة بأفعالهم ويلبسون لافتات الطرق أقنعة، ويرمون الحجارة على أعمدة الإنارة..

يقضمون بتبذير وعنجية ثمار التفاح والأجاص، ويأكلون بالقرب من السنديانة ثم يقول: دعونا نستظل تحت شجرة السنديانة الكبيرة هناك..

وكلما اقتربوا ازدادت دقات قلب الفتاتين، وفي غمرة الرعب انطلقتا في محاولة للهرب، لكنهما كانتا أقرب إلى قبضة (أبا أوس) مساعد أبو القعقاع، بعد مطاردة خفيفة تعثرتا خلالها بالأرض عدة مرات.

يمسك بهما ويجرهما من شعريهما، فتصرخان وتبكيان، فتتعالى عليهما الصفعات.

- من أنتما؟ وماذا تفعلان هنا؟

- ترد شروق.. أنا هنا في بستان أبي رحمه الله، أعتني به.

- أين بقية أهلك؟

- لا يوجد لي أهل، مات والدي، وتلك قبورهم، وإخوتي خرجوا ولم يعودوا وأنا هنا أعيش وحدي؟

- وأنت؟

- أنا من القرية المجاورة، وجئت هنا لأزور أقاربي ولم أستطع العودة.

زمن الموت لا ينتهي يا ابنتي الثاكلة
وأنا لست أول من نبأ الناس عن زمن الزلزلة
وأنا لست أول من قال في السوق..
إن الحمامة في العش تحتضن القنبلة

(أمل دنقل)

يبدي أبو القعقاع إعجابه بجمالهما، ولم يرأف بحالهما، ويقول لمن حوله: الأمر في غاية السهولة، البستان الكبير في هذا الموقع المتميز أصبح منذ الآن لي، أما الفتاة الكبيرة فهي ملكاً لنا والصغيرة من الممكن إرسالها إلى العراق كهدية مغلفة إلى الرطباوي أمير سنجار، وأعتقد أنه سيشكرني على ذلك، بعدما يتأكد من حسن نيتي تجاهه وأنني أتنبأ لهذه الطفلة بمستقبل في التنظيم..

يا للحسرة .. الجميلات هن الفقيرات..
كالورد في ساحة المعركة.

يأمر أبو القعقاع بتقييد شروق وربطها عند شجرة السنديانة بجوار والديها، وأن تؤخذ الفتاة الأخرى إلى سيارة الجيب من النوع (الدفع الرباعي) لحاجتهم لها الليلة..

تصرخ الفتاة، وحاولت أن تفك يديها من قبضة (أبا أوس) لكن دون جدوى، ولأن نفسها تأبى المهانة والذلة، بصقت في وجهه فأطلق النار على رأسها، فسقطت شهيدة..

وهنا استشاط أبو القعقاع غضباً، وأخذ يصرخ على (أبي أوس) الذي لم يكترث لقول أميره، فما كان من أميره إلا أنه أطلق النار عليه فأرداه قتيلاً، وأمر معاونيه أن يدفنوه..

تنظر شروق إلى المشهد، وكأنها مشدوهة من هول الصدمة، ما هذا؟ تحجر بؤبؤ عينها، ولم ترمش لحظة، إلى أن رجت رأسها وأخذت تبكي على الفتاة التي استشهدت بطهارتها..

وجهك .. سماء ثانية

سماء .. بلا غيوم ولا نجوم ولا شمس ولا قمر

وجهك .. سماء نقية من كل شيء..

كل ما فيها سماء ثانية.. تضج صفاءً

وتضيق بالصفاء .. ذرعاً وضجيجاً

(علاء عفاش)

عصرت شروق عينيها دون مسحهما لأنها مقيدة اليدين، تمنت الموت لتدفن بجوار أحبابها بعدما صدقت بأعينها ما سمعت عن هذا التنظيم من قبل، تواسي نفسها بين الحين والآخر، وتقول في نفسها:

من يستطيع الإفلات من الحياة؟!

لا يمكن أن نرجع إلى الوراء، ولا يمكن الهرب إلى الأمام

الحياة في هذه الظروف فعلاً ورطة حقيقية.

السوريات .. هن اللواتي كوى الدمع خدودهن

ألم تسمعوا قول الحكماء: آخر الحزن الكي!!

(صدام العبد الله)

الزهرة الثامنة

إلى قاتل:

لو تأملت وجه الضحية .. وفكرت

كنت تذكرت أمك .. في غرفة الغاز.

كنت تحررت من حكمة البندقية .. وغيرت رأيك

ما هكذا .. تستعاد الهوية ..

(محمود درويش).

أين تذهب بها يا شيشاني؟

أمرنا الأمير أن نرسلها إلى مدينة سنجار كهدية إلى القائد الرطباوي، يبدو أنها ستكون هدية ثمينة .. هههههه.

تتعالى ضحكات من في المركبة وتتهافت الكلمات من أفواههم بكل قذارة عما سيفعلون بها يتساءلون ويجيبون..

هل سيبيعونها؟ هل سيهدونها لأحد القادة؟ هل ستكون جارية؟

هل .. هل .. هل ...؟

يا وطني المعروض كنجمة صبح في السوق..

في العلب الليلية يبكون عليك..

ويستكمل بعض الثوار رجولتهم

ويهزون على الطبلة والبوق..

أولئك أعداؤك يا وطني ..

(مظفر النواب).

في هذه الأثناء تصحو شروق من غيبوبتها التي كانت على أثر الكدمات التي تلقتها، والنزيف الذي طال أنفها.. تجر صمودها ويديها مكبلتين، وعيناها معصوبتين .. تنادي:

أين أنا؟ ومن أنتم؟

يرد الشيشاني: نحن الملائكة وسوف نذهب بك إلى الجنة ههههههه

تصرخ بصوت عالٍ.. وتبكي بكل ما أوتيت من دمع، تشتهي طلقة طائشة أو مقصودة تنهي عذاباتها..

لكن للأسف ليس بالإمكان غسل وجه المكان... فهي من

مدينة لا يُغادرها الغبار، وصفها لا يستقيم بلا دخان، بلا دمع، بلا ريبة..

تصرخ.. أين تأخذونني؟ فكوا قيودي.. أزيلوا العصبة عن عيوني!!

يقول أحدهم، ويدعى الأحمر: يا شيشاني.. فك رباطها وأزل العصبة عن عينيها، فلن تستطيع الهرب.

ورغم قناعتها بأنه لم يعد أحد إنساناً، وأنه لن يقاسم الإنسان وحدته وحزنه وألمه سواه، وأن كل ما يفعله الانتظار بنا هو مراكمة الصدأ فوق أجسادنا وأرواحنا.. إلا أنها شمت رائحة الإنسانية في عيون (الأحمر) الذي حاول إقناع الشيشاني والذي وافق أخيراً على فك قيدها ورفع العصبة عن عينيها..

تقول شروق: أنا لا أذكر شيء، سوى حديث الأحياء مع الأموات ووصايا والديَّ، ثم قدوم ذلك الرجل الذي يرتدي كل سواد، وضربه المبرح لي..

يقاطعها الأحمر: لا تتكلمي.. قلنا لك من قبل أنك أصبحت ملكاً للتنظيم منذ تلك اللحظة، وسنذهب بك إلى العراق، فهناك الكثير من أمثالك ممن يقع عليهن واجب السمع والطاعة لولي الأمر.

نحن من اليوم فصاعداً أهلك وذويك.. لكن أتمنى أن ييسر الله لك شخصاً يعاملك معاملة حسنة، وأن لا يتم بيعك في سوق النساء.

سوق النساء!!!!

آه يا وجعي .. كل ما سمعته كان عذاب مستعر..

أنا ما حزنت على سنين عمري طال أم قصر..

لكن حزني على صرخة الحلم البريء المنكسر (كنفاني)

سوق النساء!! ألهذا الحد وصلت الأمور؟ ألهذا الحد لا قيمة للإنسان؟!

تحاول أن تجمع شروق شتاتها بعد ما سمعت، لكن كلما جمعت ما استطاعت، تحلل جمعها في صدمة.

آه يا أبي.. آه يا أمي أنت أنتم يا إخوتي؟!

تستنجد بالأموات والغايبين ونسيت ما قالته (رضوى عاشور):

الأموات .. يحتاجوننا كما نحتاجهم

إن لم نوافهم بالسؤال يقلهم الحزن .. وتركبهم الوحشة.

تحاول شروق أن تتململ، أن تحرك جسدها، أن تتلمس يديها، لتستعيد وعيها بأن ما يجري معها ليس كابوساً..

تسأل الأحمر: أهذه نهايتي؟ وتظهر في عيونها محاجر الوجع ومنابع الألم، الدمع الهارب إلى سفوح الإنسانية.

يرد، وقد اعشوشبت ملامح الإنسانية على وجهه.. لا تقلقي ستكون الأمور على ما يرام لا تبكي..

وفي هذه الأثناء تقف السيارة عند نقطة تفتيش تابعة لتنظيم داعش، يعرف الشيشاني بنفسه وينزل من السيارة للسلام على

أفراد نقطة التفتيش، يتبادلون الحديث والضحكات، ويتمازحون بالأيدي..

تحاول شروق أن تفهم ما يدور، لكن دون جدوى، يعود الشيشاني ويركب السيارة ثم تنعطف في طريق ترابي بين الأشجار، بناءً على توصية نقطة التفتيش.. كون أن هنا الطريق أكثر أماناً..

متى تعرف أنك تائه؟

عندما تقف في بلادك

وعيناك ترنو إلى بلاد أخرى

عندما تقف في بلاد لم تنشأ فيها

وعيناك ترنو إلى بلادك

عندما تبقى في بلادك

وعيناك على مستقبل تراه مستحيلاً

(أمين معلوف)

يرخي الليل سدوله، ويحل الظلام، وقد نال التعب من شروق ما نال، تحاول النوم لكن الخوف سيد الموقف يعتريها فيسحب جفونها، تبقى في حالة يقظة تراقب وتسمع حديث من في السيارة، وبين الحين والآخر يتبادلون القيادة حتى لا يغلب النعاس على أحدهم.

شدها حديث الشيشاني وهو يروي للآخرين قصة انضمامه إلى التنظيم، حيث قال حين سأله الأحمر:

أنا من حلب، وكنت أعمل أيام بسيطة في العام، وبقية العام عاطل عن العمل، وكانت عائلتي تعاني الفقر الشديد، وحالة العوز بلغت أشدها، وضاقت بي الدنيا عندما فقدت والدي لعدم قدرتي على تأمين العلاج اللازم له لارتفاع تكاليفه، وفي لحظة خاصم فيها نبضي شرايين جسمي، وتوقف عقلي عن عادة التفكير، جاءني أحد الأشخاص، وعرض عليَّ الانضمام للتنظيم مقابل راتب شهري مغري، فوافقت دون تردد.. فتم صرف مبلغ مالي جيد لي، وقام أمير الجماعة التي تم تنسيبي إليها بتزويجي من فتاة حسناء دون مقابل.. استرسل وهو يلعن الفقر، والعوز، والحاجة..

أنا والحمد لله لا أمارس ولا أقوم بأي فعل يغضب الله، لكني أتعاطى مع الموقف بحسب ما يمليه ضميري، فمهمتي في التنظيم تتلخص في نقل الأفراد والأسرى ليس إلا.!!

يرد الأحمر: آه آه، مهما كان فكلنا مقصرون .. مذنبون.

- لو كنت مكاني ماذا تفعل؟! ما كنت لأحصل على العمل والزواج لولا تجنيدي في التنظيم، ولا يعنيني ما مصدر المال أو طريقة الحصول عليه، وعلى فكرة من خلال نقلي للأفراد، وعلاقتي بأفراد التنظيم لاحظت أن معظمهم مروا بظروفي..

استأنست شروق بالحديث، وفي نفس الوقت كانت تحدثها نفسها في مصيرها المظلم، ومستقبلها فاقد البوصلة، وكيف يمكنها أن تتخلص من هذا الوهم.

يرشدها تفكيرها إلى أن تطلب من السائق أن يوقف السيارة لقضاء حاجتها، وفعلاً دون تردد، قالت:

- أنت   هل يمكن أن توقف السيارة؟

- لماذا؟ خيراً إن شاء الله.

- أريد أن أقضي حاجتي..

يهز الشيشاني رأسه بالقبول، ويردف قائلاً: عندما يكون المكان والزمان مناسبين سيكون لك ما تريدين.. وبعد دقائق معدودة توقفت السيارة وقال لها الشيشاني: إنزلي هنا، وينزل معها، ويقف على رأسها، ويقول لها: إقض حاجتك هنا..

تنظر إليه نظرة حاقدة، وترد بكل قوة: كيف وأنت هنا؟ ألا تدعون الفضيلة، وتحافظون على أعراض الناس، وتحسنون معاملة الغارمين والأسرى ابتعد عني..

فيصفعها الشيشاني على وجهها ويقول: أتعلميننا أمور ديننا يا .....، إما أن تنجزي ما تريدين أمامي، وإما تعودين إلى السيارة!!

تصعد شروق إلى السيارة، وقد تجمد الدم في عروقها، وتحجرت جميع حواسها، من هول إرهاب الشيشاني.

هذا الموت الكثير هناك.. يمر بي..

يضع يده على قلبي ويؤجلني لموعد آخر..
يرفض التصريح بتاريخ محدد..
يتركني على أهبة المفاجأة .. **(سماح العيس)**

عند بزوغ الفجر، تصل السيارة إلى منطقة سنجار، وينزل الشيشاني يجر شروق وقد أوثق يديها وربطها بحبل يجره.. ركب سيارة أخرى، وتعود السيارة التي نزلوا منها ومن معه أدراجها إلى سوريا..

تشعر شروق بالانكسار، وليس هذا ذنبها، فالطغاة والنخاسون وآكلوا أكباد النساء يعيشون بيننا الآن.. حتى وإن صرخت، لن تجد من ينصرها.. لا أرواح.. لا جنود.. لا نخوة..

يدور الحديث بين الشيشاني وسائق السيارة، في أجواء يسودها المنفى، ويغيم على شروق الفقد بأسمى مراتبه، فهي مسكونة في هذه اللحظات بالوحدة القسرية وكأنها تحمل قلباً لشخص آخر.. تشعر أنها تنتظر شيئاً لن يعود، وتحلم بأحلام لا تنتمي إلى الحياة.

- هل الرطباوي موجود؟
- صحيح... فهو بانتظاركم في قرية (تل بنات).. ليست بعيدة من هنا.
- أهلا حدثني، ما الأخبار؟ هل من جديد؟
- كل جديد.. تمت السيطرة على المدينة بالكامل، وقد هرب

آلاف السكان، وقد سبي مجموعة من النساء اليزيديات، تم بيع بعضهن، وتصفية الفاسقات منهن..

- كم هي جميلة مدينة سنجار، وسيكتمل جمالها لو أني أرجع إلى سورية ومعي جارية يزيدية.

- إن كنت تملك الشجاعة أطلب من الرطباوي جارية تأخذها معك إلى الرقة ولن يقصر معك...

تصاب شروق بذهول بفك شيفرة دماغها العميقة، يخترقها الخوف كلما تقدمت السيارة باتجاه القرية..

في الحارات المهجورة .. بين صفوف الشعب المعزول
يترصدنا القتلة..
ولذا لم أسأل نفسي يوماً: من منهم سيكون القاتل؟
بل كنت أقول: من منا سيكون المقتول؟

(ممدوح عدوان)

الزهرة التاسعة

من أين نبدأ في مثل هذا الخواء الشاسع؟

وإلى أي هاوية سيقودنا الأسف..

كهف كبير في أحد الجبال التي تستر أوجاع ساكنيها، كهف بجوف كمنزل به صالة واسعة يجلس فيها من ضاقت بهم فرص الهروب، وفي الصدر الشيشاني، وفي يده حبلاً يجر به شروق، يأتي أحدهم بطبق من الفاكهة يضعه أمام الشيشاني، بتوصية من الرطباوي.

- ما قلتي لي يا شروق، من أين أنت؟

أنا من أهل المدينة المنكوبة يا سيدي.. وما جدوى التفاصيل؟ وتلوح بنظراتها لا تطيق رؤية ما حولها، وكأنها تترجم ما قالته (نبال قندس):

أشياء لا تهتدي إلى موطنها..

تأكل الغربة أطراف ثوبها..

أرواح مسجونة في منتصف الحرية.

أعتقد أن هذا المكان سيكون مناسباً لك، أدعُ الله أن يقبلك الرطباوي جارية عنده، وتنعمي بهذا الخير..

أي خير!!؟ في الطريق من الفردوس إلى التيه لا يكون الخير، وتضحك ضحكة ساخرة..

وفي لحظة تجلت فيها كتابة أرشيف الدم، وبقر بطون الكرامة، مشحونة بالفقد، دخل الحاجب، يعلن بصوتٍ عالٍ:

- الأمير الرطباوي قادم، فلينتبه الجميع..

يدخل شخص فارع الطول، ممتلئ البطن، في وجهه علامة فارقة كأنها ضربة سيف، بشرته أقرب للسمرة، مرتدياً عمامة سوداء وثوباً بني اللون.

يهب الشيشاني، يلملم ملامح الانكسار، ويكنس من قلبه وجوه الولاء يهرج للسلام عليه، يقبل رأسه، ثم يطلب من شروق أن تقبل يد الأمير.

ولأنها بنت الكرامة، بنت الإباء ترفض.. فيمسك الشيشاني برأسها ويقربها ليدي الأمير ويرغمها على تقبيلها عنوة.. فيقول الرطباوي: لا لا.. دعها الآن، سيرغمها جوعها.. لا تقلق.

في الحرب قد تخسر كل المعارك التي تخوض

في الحرب أفضل ما تفعله أن تحافظ على أخلاقك وكرامتك..

في الحرب يبقى الورد ورداً يا صديقي

(إسماعيل كروية)

- تعال يا شيشاني، إجلس وأخبرني عن الأوضاع في الشام، وأحوال التنظيم.

- كل شيء على ما يرام.. التنظيم في إمارة الشام يحرز تقدماً في بعض المدن السورية، وأبو القعقاع يهديك السلام والتحية، ويرسل لكم هذه الفتاة كهدية.. خصك بها لجمالها وحداثة سنها، ولتكن جارية لكم مدى الدهر.

يضحك الرطباوي فيه ضحكة شيطانية تخرجه من دائرة الآدمية، ويجامله الشيشاني ليقنع نفسه بأنه على الحق.

- يبدو أنها هدية ثمينة، فجمالها واضح، وملامحها الملائكية تأسر القلب وتثير ترانيم الجسد، تنضج الشهوة وتلوث التفكير.. هههههه.. قبلناها وسنحافظ عليها، لكني أعتقد أنها بحاجة إلى ترويض.. أنا لي نظرة، وهي تبدو عنيدة.

تنقل شروق نظراتها بينهما، وقلبها لا يتسع للصراخ، وكأنها تظهر ما قصده (أمين معلوف):

"باسم الأموات يقتل الأحياء، وباسم المظلومين يظل المستضعفين ما بين الماضي والحاضر هناك مجرمون يرفعون شعارات، وشعوب تطحن، وأما المستقبل فهو حاضر غائب"

سيكون علاجها الجلد اليومي، حتى تكون صالحة للتعايش معنا، ويقترب منها، يحاول أن يلمس خدها فتبتعد، وتشيح بوجهها، فينظر إلى

الشيشاني، ويقول: ألا توافقني الرأي؟ مطلقاً الضحكة إياها

- يا حدباء يا حدباء ينادي الرطباوي..

تدخل امرأة في الخمسين من عمرها.. لا تمت للأنوثة بصلة إلا بصفتها، قبيحة الوجه، جسمها نحيل، فارعة الطول، تحفظ الإهانة كإسمها، يبدو عليها إتقان الجراح..

- نعم مولاي.

- خذي هذه الفتاة أدبيها، وعلميها كيف تتعامل مع أسيادها، وألبسيها لباساً يليق بنا، واختاري لها اسماً جديداً، فاسمها لا يعجبني.

كل حزن في هذه الوجه لا يعول عليه

جرحها أكبر من تغيير اسم

جرحها أكبر من ملابس جديدة

لم تنفرج صخرة حزنها، تفتقد شروق الآن حضن أمها حد الوحشية، حد الدعاء يتدفق الغضب من عينيها بذعر بعد أن مسكت تلك الحدباء الحبل من الشيشاني وركلتها بقدمها، وكلما وقفت ركلتها لتسقط..

يااا لقسوة الظالم.. حقاً إن الموت ليس هو الخسارة الكبرى، بل إن الخسارة الأكبر هي ما يموت فينا ونحن أحياء..

تغيب شروق، عن الأنظار.. يشكر الرطباوي الشيشاني، ويسلمه رسالة لأبي القعقاع مفادها الإعلام بسيطرة داعش على الغالبية العظمى من محافظة نينوى ومدينة الموصل، وأنه سوف يرسل في غضون أسبوعين

شحنة كبيرة من الأسلحة إلى الرقة، لتعزيز قوات التنظيم في بلاد الشام من أجل الاستمرار والتقدم في المدن السورية، ومع الرسالة مخطط لسير شحنة السلاح من العراق إلى الرقة.

على غفلة منا .. بهت عالمنا الملون

على غفلة منا .. احترقت مدن أحلامنا واحترق أطفال دفاترنا

وخمدت نار الحنين وهجرنا الأطلال..

وأسدلت ستائر المشهد الأخير..

وبنى النسيان أعشاشه في داخلنا ...

(شهرزاد).

لم يستطع الشيشاني أن يطلب الجارية التي سكنت أحلامه، وعششت في مخيلته، فالخوف تملكه لحظة التقائه بالرطباوي، فيغادر دون تحقيق ما تمنى.

يجلس الرطباوي برهة من الوقت.. يتدارس الأمور مع معاونيه يضحك مرة ويغضب مرة.. يمشط لحيته بيده تارة ويهرش دماغه تارة أخرى، ينادي على حارسه..

- يا صهيب اذهب إلى القائد الرقاوي في الموصل، وأبلغه سلامي وتحياتي، واطلب منه على لساني الحضور بعد عشرة أيام لأمر في غاية الأهمية والسرية.

- علم وينفذ سيدي.

في غرفة كبيرة تجلس ست نساء جميلات تتراوح أعمارهن ين الخمسة عشر عاماً والثلاثين عاماً، اثنتان منهما تبكيان بوجع، وما زالت آثار الكدمات ظاهرة في أنحاء مختلفة من أجسادهن، وبعض الملثمات يحمن حول الجميع، أما شروق فقد جلست القرفصاء في زاوية الغرفة المتعبة، وهي ترجف، تخاطبها تلك الحدباء، فتقول:

اسمعي يا لا خيار أمامك سوى الطاعة، هذا إن أردت البقاء على قيد الحياة، وإن لم تودي الحياة، فالأمر لك.. خالفي الأوامر التي تصدر لك وجربي ما سيكون مصيرك..

وهنا ينتاب شروق حالة من الهستيريا، والضحك.. الضحك الممزوج بالوجع أو بالألم المبرر.. تصرخ عليها الحدباء بكل جنون، ما الذي يضحك يا بلهاء..

الضحك هو المبرر الكبير للحياة!!

وعلى القول إنني، حتى في أعمق لحظات اليأس كنت قادراً على الضحك هذا ما يميز الإنسان عن الحيوان (أميل سيوران).

تمسك الحدباء شروق من شعرها وبيدها الأخرى مقص، وتبدأ بقص شعرها بشكل عشوائي، وهي تقول: ما حاجتك لهذا الشعر الطويل، فليس لدينا من الوقت الكافي لتصفيفه يا بلهاء، وتضحك بصوت مستفز وهي تتمتم وجدنا اسمك الجديد .. بلهاء .. يا بلهاء ..

وتواتر الضربات على خدها الذي لم يعرف إلا الدموع، وتضربها

على كتفها ضربات موجعة، وتوخزها بالمقص.. وشروق مغلوب على أمرها لا تملك إلا البكاء من الوجع..

يا لهذا الزمن، ما أثقل وزن الألم فيه على ظهورنا وأكتافنا، رحل الجميع ونسوا شروق التي كلما كبرت ثقلت أوجاعنا، وكلما حملت أوجاعها انحنيت أكثر.. كم تحن إلى حضن أمها إلى مسحة أبيها على جبينها، حينما رحلوا بقيت الفراغات باتساع مخيف لا يملأه شيء، وهل يكفي ما في العالم من أنهار لغسل أحزان شروق، هل يكفي ما في الزمان من قهر لنرثي موت الإنسانية بعصر حقوق الإنسان.

تترك تلك الحدباء الحرباء المكان لينظف، وتبدأ شروق بالسجود ودمعها يتعلق بطرف أنفها كلما رفعت رأسها من السجود.. وتنهار على الأرض، تهرع النسوة لإسعاف شروق وإيقاف بعض مواضع النزيف في جسدها النحيف..

تقول إحداهن: يا لقصصنا الحزينة يا إلهي.. من يشتري الموت ويبيعنا أملاً؟ من يشتري الظلام؟ من يشتري جراحنا، فقد مللنا الظلم.. انهضي يا صغيرتي فتمسح وجه شروق ببعض الماء.

وتقول أخرى: كلنا في الوجع شركاء، لكل منا قصة حزينة، كلنا جئنا من أماكن مترامية الأطراف، منا من سنجار، أو سورية أو الموصل، وعندما بدأت تسمع شروق من القصص ما يشيب لها الولدان، وما يهون عليها ما هي فيه، فلم تكن قصتها أول ولا آخر القصص المكلومة..

وهنا.. تدخل إحدى الملثمات ومعها أكياس الخبز، تقول: هلموا إلى

الغداء إنها الوجبة الوحيدة في اليوم..!!

فتهرع إحدى النساء وتخطف رغيفاً من الخبز تأكله بنهم شديد، وكأنها لم تذق الطعام منذ أيام، وبعد أن أوصلت لبلعومها ببعض اللقمات غير الممضوغة، تسأل: أين نحن؟ من هؤلاء؟ كيف جئنا إلى هنا؟

ترد تلك المكلومة (أم زياد) التي جيء بها من حلب، فتقول: نحن في إحدى معاقل داعش، وهذا مكان أمير سنجار ويدعى (الرطباوي)، ونحن ننتظر مصيرنا، فبعضنا سيباع بالمزاد، والبعض الآخر سيبقى هنا، وبعضنا سيقدم هدايا لآخرين، لا تكترثوا كثيراً، فنحن هنا عبارة عن جاريات، بغلطة واحدة نرتكبها قد تكلفنا حياتنا، فغضب الأمير من إحدانا يعني الموت المحقق فهم يتفننون في طرق إزهاق الأرواح..

أنا لا أخيفك يا عزيزتي أو أزرع الرعب في خلجات قلبك، لكنها الحقيقة فلا تظهري عناداً، كوني مسالمة لتنجو بحياتك.. ابتلعي الوجع وابتسمي واحلمي بغد أفضل دون أن تظهري شعورك، ففي هذا الواقع الموحل والزمن السقيم قد يكون إنجاز الممكن هو الحلم.

فترد شروق بما قالته (أمل دفقل) حين قالت:

كل شيء يفر

فلا الماء تمسكه اليد

والحلم لا يتبقى على شرفات العيون..

والقطارات ترحل

والراحلون يصلون ولا يصلون..

- ما اسمك يا بنتي؟

- أنا شروق من الرقة، يتيمة وقد حرمني التنظيم من الجلوس عند قبري والدي.

حضنت أم زياد شروق، وقالت: لا عليك يا عزيزتي أنت ابنتي.

أم زياد تلك المكلومة التي خبأت كنوزاً من التفاصيل في زوايا بيتها القديم تلك التي روت الأرض عن الأرض، التي فقدت جميع أفراد عائلتها زوجها وولديها وابنتها، تلك التي حاولت أن تجد راحتها بانضمام نفسها الحزينة إلى نفس أخرى، تماثلها الشعور وتشاركها بالإحساس، مثلما يستأنس القريب بالغريب.

تروي قصتها التي تدخل في دائرة الذهول وحالة الضياع والألم، فقد فقدت زوجها في قذيفة طائشة زارت السوق يوماً، عندما كان يبحث عن بعض كسرات الخبز ليعزز بها صمود أبنائه..

جاءها الخبر كبارود الثورة، فثارت حد الاشتعال، وبكت تكدسات الذكريات اقتتاتت الحزن قمحاً على أيتامها، اشتعلت حد الاحتراق.. تحول بياضها إلى سواد وفرحها إلى حداد ولم تجد جثته لتحتضنها..

عاشت أيامها تموت بلا موت في أحد أحياء حلب التي لم تستطع الصمود كثيراً، وانطفأت شموعها قبل أوانها.. وفي أحد أيام الهدنة وحزنها حنينها إلى حضن أمها ففكرت في زيارتها لعلها تنال من الرضا

ما يكشف غمة نفسها، فخطفت وقتاً لا يعود ولا يعوض لتقبل جبينها وقبل أن تصل بيت أمها.. هاجت الأجواء وماجت وعاد القصف يقبل جبين البيوت الصامدة، وبمجرد انكشاف الألم، عادت أدراجها لتموت مع أبنائها.. تدرك تماماً أنها أصبحت في عداد الموتى لدهشتها بما رأت، وما أن وصلت وجدت أن أولادها قد ماتوا كالورد بين طيات التراب..

أبحث عن قلبي في مقبرة جماعية

أدفن كل الأصابع المكسوبة بالوبر

وأترك شواهد من قمح خلفي

كيف أجد قلبي.. قبل عودة القتلة؟

(مناهل السهوي).

لثمت بروحها وجع التراب، ولملمت أوجاعها، وأطفأت قناديل بيتها وأصبحت في السماء وحدها، وتجري كل محاولاتها لتتعلق بما تبقى لها .. بجلبات أمها، بترانيم دعواتها.. لكن للأسف، لا يحلو للحزن إلا أن يكمل دورته ماتت تلك العجوز.. ماتت مخلصة الدعاء.. ولم يبق لأم زياد إلا الذكريات..

حاولت أم زياد الهرب من المكان الذي يتخمر برائحة الموت، لتبقي على بعض من هشاشة نفسها، وفي طريقها إلى بيت أخيها الذي يقطن حي الوعر القريب من حمص، لم تصل، فقد وقعت في أيدي عصابات

داعش التي اعتبرتها فاكهة المساء، ولم تراع فيها دنيا ولا دين.

يموت الموتى عندما لا يجدون من يتذكرهم

يدفنون تحت طيات سميكة من النسيان

حيث تكفنهم برودة الغياب

يغمضون أعينهم على وجوه الأحباء

ويستعيدون الحياة التي غيبتهم ومحت أسماءهم من سجلاتها.

(ماري القصيفي)

الزهرة العاشرة

(التعلق بالأموات، دليل على أنه لم يعد في الأحياء من يستحق الاهتمام) (أحمد الغزي)

عاشت شروق الأيام بين حنان المكلومات أمثالها، وفظاظة الحدباء ترى كل الأشياء مائلة، ووحدة الألم يستطيل في قلبها ويتمدد، وبعد مضي عشرة أيام بمراسم الوجع وطقوس الخذلان والذل، يساق فيها الجميلات إلى حضرة الأمير ومعاونيه، وكأننا نعيش في زمن الجاهلية بوجهها المنمق.

يدخل أحد حراس الرطباوي ليستأذن الأمير بدخول القائد الرقاوي برفقة حرسه، فيؤذن له بذلك.. يدخل الشاب ويجلس بالقرب من الرطباوي ويتبادلان التحية.

يقول الرطباوي: أخبرني أيها القائد .. كيف الأحوال؟

- كل شيء على ما يرام يا سيدي، لكن بدأنا رغم التقدم الذي نحرره نتكبد خسائر في الأعداد والذخيرة.

- أتيت بك اليوم لأمر في غاية الأهمية، فقد وقع عليك الاختيار لتكون قائداً لعملية نقل عشرة شاحنات من الأسلحة من هنا إلى الرقة وتسليمها إلى أبي القعقاع، وذلك لثقتي بك ولتأكدي من ولاءك وانتماءك للتنظيم.

- أشكر لك سيدي هذه الثقة، وإن شاء الله أكون عند حسن الظن.

- سنجهز عشرة شاحنات نحملها بالصناديق الفارغة، ونلتقي في قضاء الباعج في بستان كبير في قرية (السوجين)، فهي قرية كثيفة الأشجار مليئة بالبساتين، والطريق منها إلى سورية تخترق الأشجار، وسيكون التنقل فيها سهلاً، وكونك من الرقة فسوف يسهل عليك الوصول لها.

والآن خذ واجبك وضيافتك، وتمتع بإجازة حتى الموعد المحدد ولك مني هدية، هي (جارية بطعم الفستق) وهبتك إياها.

يا حدباء .. يا حدباء .. ينادي على تلك المشدوهة، تلك التي بوجهها تفك حياكة الروح، فتأتي مهرولة:

- بأمرك مولاي..

- جهزي البلهاء إنها هديتنا للرقاوي..

- حاضر سأحضرها جاهزة بعد تناولكم الغذاء..

لماذا لا يغيرون شكل طغيانهم حتى يصبح تاريخنا أكثر تنوعاً

على الأقل ربما نمنح أحفادنا كتب تاريخ غير مملة.

(محمد علوان)

تذهب الحدباء لتجهيز شروق، وبينما هي تغسل لها بعض أجزاء جسدها تقول: أبشري يا بلهاء، فحظك سعيد، فلقد وهبك أميرنا للقائد الرقاوي، وهو شاب وسيم، وقائد مغوار، فاحذري أن تخالفيه وكوني خادمة مطيعة، وتذكري بأن أي مخالفة لأوامره تعني الموت المحقق، ارتدي هذا اللباس وضعي الخمار على وجهك ولا تظهري وجهك حتى تدخلين عليه بيته.

- تبكي شروق وتقول: حسبي الله ونعم الوكيل.
- ترد تلك الحدباء .. أتدعين علينا يا بلهاء، هذا جزاء الإحسان؟؟

لكن يبدو أنه لا يليق لك!!

وإذا تضرعنا إلى رب السماء..

قيل لنا: ممنوع.

وإن هتفنا يا رسول الله كن في عوننا

يعطوننا تأشيرة من غير رجوع

(نزار قباني).

بعد أن انتهى القادة من تناول طعام الغداء تدخل الحدباء ومعها شروق، تقول:

- مولاي .. هذه هديتك للقائد الرقاوي.

فيلتفت إليها الرطباوي، ويعيد النظر إلى الرقاوي قائلاً: هدية الأمراء لا ترد.

وهنا يتجسد قول (أمل ونقل): (وأرى في العيون العميقة لون الحقيقة.. لون تراب الوطن)، وتحققت الأقاويل التي تزهو في طريق الغيب الذي يحمل شيئاً جميلاً يستحق الصبر، لقد زرعت الفرحة في رحم التراب المثخن بالنزيف.. فسلام على تلك العيون التي تضحك بعدما ارتكب فيها الحزن مجزرة..

وقعت عين شروق على شقيقها ورد، وكأنها تقطب جرح البلاد بخيط الياسمين وتعيد تسجيل النبض المعتق بالحنين، فتسقط مغشي عليها، يبرق الرطباوي بعينيه إلى الحدباء ويزجرها ويوبخها قائلاً: ويحك!! ألم تطعميها اليوم؟! إذهبي وأطعميها ونشطيها فأمامها سفر طويل..

تحملها حدباء بمساعدة إحداهن، وتحاول أن تعيد لها وعيها الذي يشم خطى العابرين من بعض الحنين.. فتفيق شروق، وكأنها ولدت من جديد، وكأنها تجدد الأكسجين في رئتيها، تطحن نفسها بعبق الياسمين تردد في نفسها:

يسقط الظالمون .. يموت المجرمون

ويبقى الياسمين غافيًا على شرفات السنين (خالد خالد)

تبتسم ابتسامة خفيفة تكفي لتوقظ الشمس، وتنير القمر وتهزم ويلات الذل، فالزهرة التي خنقتها الحرب نجت بنظرة من عيون أخيها..

تصرخ الحدباء في وجهها: ما الذي أصابك يا بلهاء؟!

تكتم شروق في نفسها محاولات الفرح، كأنها قطع من عقيق، تخاف عليها من اللصوص!!

تتدارك الأمر شروق، وتجيب: يبدو أنني لم أنم جيداً البارحة!!

تناولت حدباء تفاحة، ودفعت بها إلى شروق، وكأنها تستكثرها عليها، وتقول: كلي هذه..!! حتى أتيك ببعض الطعام.

- جاء الطعام، وانهالت عليه شروق كمن لم تذق الطعام منذ سنين، وهي تبلع الطعام ولا تأكله، تقول: متى سأذهب لمولاي الرقاوي؟

- تضحك الحدباء، وتقول: يبدو أنك عرفت طريقك جيداً.

تدخل بلاط الأمير، فيمسك بيدها الرقاوي، ويا لروعة إحساسها بهذه اليد التي تمنت أن تمسح جبينها منذ أن مات والديها!!

شكر الرقاوي الأمير على هديته، وهو يحدث نفسه: رائحة يدك يا صغيرة كرائحة أمي، لا يلوثها الخراب، ولن تزول حتى بموتي، سأتزوجها وأحسن معاملتها، ولن أعاملها كأمة أو جارية..

بين غربة البدايات وحنين اللقاء، ورغم مسموعات الرقاوي في

القتال وشراسته في التعامل العسكري، إلا أنه يؤمن بأن المرأة يجب أن تعامل معاملة تليق بها، فهي الأم والأخت، فهو يجسد في كل امرأة أخته وأمه.

يخاطبه الرطباوي: ما بك يا رقاوي، فيم سرحت؟ أعد تفكيرك معي هههههه من ينظر إليك الآن عند رؤيتك البلهاء لا يصدق أنك قائد لا يشق له غبار..مكتبة الرمحي أحمد

يقول الرقاوي: لا شيء، أفكر فقط في موعدنا بعد أيام وتبدأ رحلة عودة الروح إلى الجسد، يغادر الرقاوي وشروق إلى الموصل.

(لو أننا حين ولدنا رمونا في الجبال كي نعيش مع الذئاب، حتى إذا ما نزلت بعد حين عرفنا كيف يمكننا التعايش مع بشر هذه الكرة الأرضية) (ناصر قواسمي).

الزهرة الحادي عشر

ولي أن أرقص .. أن أمارس الفرح رغم أنف الحزن.
وأن أصعد أعلى من هاوية السقوط في اللاممكن
فما زلت على قيد النجاة..
وما زال في قلبي طير يطير ويغني للحياة وللوجود

(ناصر قواسمي).

رغم سعادة شروق بعودة جزء من قلبها، لكن هنا ما يؤلمه، فقد صار قلبها أعلى من حماقة الألم، وعلى قول غسان كنفاني: (كم هي مؤلمة وقاسية اللحظة التي يريد أن يبكي فيها الإنسان، ورغم ذلك هو لا يستطيع).

سيارة رباعية الدفع تقل الرقاوي وسائقه، واثنين من حراسه، وشروق التي ما زالت ترتدي خمارها الذي يخفي سعادة الدنيا، وابتسامة عريضة وفرح عارم.. تفكر في جمال الصدفة، وحكمة الله الواسعة التي أخرجت هذه الصدفة إلى نور الحياة.

آه آه ما أجمل أن تعانق رحمة الله قلوب المستضعفين، وأن تجدد الأمل في أرواح الضعفاء!!

تتساءل .. ترى كيف سيكون شعوره عندما يعرف أني من تبقيت له من أهله؟ أعتقد أن الغربة وقسوة العيش، وسياسة التنظيم الداعشي لم تغير هذا القلب الذي اعتدت على حنانه ورقته..

تنظر إليه وتقول في نفسها: عن ماذا سأحدثه؟ وبماذا أخبره؟ وكيف ستكون ردة فعله بعدما أخبره عن حالنا وما حل بنا؟!

تنظر للطريق تارة وتغرق في التفكير تارة تعاتب الأرض، كيف انتهت بين الأسى أيامها؟ وكلما اتسعت الطريق اكتشفت شروق ان لورد شأن عظيم في التنظيم، تفتح أمامه كل الحدود، له طرقه الخاصة إنساني مع حراسه..

تراقب الخراب الذي حل بالمنطقة، تتذكر الثكالى من النساء اللاتي فقدن أبناءهم أو أزواجهم، وكأنها تستشعر ما قاله (أحمد جمعة):

الأمهات صاروا مؤرخين عظام

يكتبون بحبر عيونهم، تاريخ الحرب

على صفحات بيضاء كالملح يسمونها: منديلاً.

وبعد ساعات، تمر السيارة في شارع ترابي ضيق كثيف الشجر، يؤدي إلى ساحة كبيرة، وقصر قديم، يبدو أنه أحد قصور الرئيس العراقي السابق (صدام حسين)، تقترب السيارة من ملحق عبارة عن بيت كبير مجاور للقصر، فينزل ورد ويفتح الباب الخلفي، وقد أمسك بيد شروق

وقادها باتجاه ذلك البيت، فتدخل شروق ثم يغلقه بمفتاح ويضعه في جيبه..

في الداخل مضافة كبيرة يقابلها مطبخ كبير، بقية الغرف مفروشة بالسجاد الذي يبدو أنه النوع الفاخر، مجموعة من الأسرة وشاشات التلفاز الحديثة، وأجهزة كمبيوتر محمولة.

تجول المنزل والمضافة وقلبها يدق بمزيج من المشاعر والأحاسيس، تنتقل بعدها بين الأشياء، وورد مشغول بترتيب بعض ما أفسدته الوحدة وضيق الوقت.. تفكر يا ترى ما الذي دفع ورد إلى الانضمام لداعش؟ ألهذا الحد سهولة الموضوع!!

يقول ورد بصوت يشوبه الحنان المبطن: أهلاً بك في بيتك يا

تنظر شروق بحسرة تشتهي الاحتضان: سيدي هل من أحد غيرنا في البيت؟

- لا، تستطيعين أن تكشفي وجهك.

- قبل أن أكشف وجهي.. أخبرني عنك من تكون؟ ومن أين أنت؟

يضحك ورد ضحكة تثير السخرية في أوساط قلبه، محاولاً إخفاء ملامح الغضب التي ظهرت على خلايا جلده ويقول:

- يبدو أنك لم تتعلمي أصول التعامل مع أمثالي، تريدين التحقيق معي، صدقت حدباء حينما أطلقت عليك (بلهاء)، ومع ذلك فإني لا أستطيع إخفاء شعوري نحوك.. فهو شعور جميل لم ألمسه تجاه أي شخص قابلته في العراق، ولا أعرف لماذا؟

أعدي لنا ابريقاً من الشاي، وسأجيبك عن بعض أسئلتك..

بالطبع تحبه حلواً، وممزوجاً بنكهة الميرمية أو ورق الليمون؟

يرج ورد دماغه، ويرسل ومضات نظراته الغاضبة لها ويسألها بذهول: كيف عرفت ذلك؟!

- سيدي.. منذ زمن بعيد كنت أعد الشاي لشقيقي، وكان يحبه هكذا.

- وأين هو شقيقك؟

- موجود إن شاء الله، وتبتسم، وهي تؤرجح ضربات قلبها، كأنها تترجم كلمات (شهرزاد) حين قالت:

رعشة الفراق كرعشة الحظ..

قد تكون بداية جديدة أو نهاية مؤسفة..

وبعض النهايات يا سيدي كالمعتقلات السياسية..

تنكل بنا وتذيقنا من العذاب أبشعه..

تقترب من ورد وتصب الشاي، وهي تحاول أن تظهر ما يذكره بها، وقد خطر ببالها أن تبرز الخاتم الذي أهداها إياه سيف، فمدت يدها تقدم الشاي، فيلمحه ورد، فيقذف بالكأس كأنه قنبلة..

- من أنت؟ ومن أين هذا الخاتم؟ اكشفي وجهك..

تبتعد وتراجع خطواتها للخلف واحدة واحدة، وهي تقول: أنا شجرة السنديان والياسمين، أنا الرقة التي أحرقتها الحرب، أنا حلم جميل أمسى كابوساً.

تكشف عن وجهها قائلة:

هذي دمشق وهذا الكف والرّاح إني أحبُّ وبعض الحب ذبّاح

يقبل عليها ورد بسرعة ويشدها، ويضمها إلى صدره، ويقول: آآه آه يا وجعي ازرعي عظامك في قلبي وهنا يعلو صوت البكاء والنحيب تتساقط الدموع كحبات اللؤلؤ على جدار الصمت، يحملها ورد ويلوح بها يميناً ويساراً ويلف بها المضافة.. لم يصدق ما يرى وما يفعل، وشروق تضم رأسه إلى صدرها، كأنها تعيد النبض لقلبها..

يسود الصمت بعد لحظات فرج فيها الشوق بالوجع، فيتنهد ورد، كأنه (حذيفة العرجي) حين قال:

لا الليل يحضن ما في القلب من ألم

ولا الصباح إذا ما جاء يؤويه

حملت قلبي على كفي وسرت به

لما تيقنت أن الله يكفيه.

أخبريني يا شروق.. ماذا حدث؟ تنهدت شروق كأنها تزيل الوجع من على سطح القلب.

بل أخبرني أنت فإن في جعبتي الكثير من الأحزان التي أسكنها القدر روحي..

الحرب أخذت منا كل شيء يا ورد، أذابت صدورنا مثل قلم رصاص، صرنا نبحث عن أرض نقترضها لتجمعنا، أخذتنا ومنحتنا ما

لم نطمح له يوماً..

كثيراً من الغربة، وفائضاً من الموت، وميراثاً أبدياً من الحزن..

يستمع لها ورد وكرات الدمع تتجمع في محجريه، يشتهي الصراخ.

يهدئ شروق بضمها إلى صدره، ويقول: أخذت كل شيء ولم تكتف بعد.

عندما غادرت الرقة في المرة الأخيرة، سارت الأمور بشكل جيد في بداياتها وأنهيت أموري هنا في العراق، وقد حققت ما لم أحققه خلال ثلاث سفرات سابقة، وهممت بالرجوع إلى الشام، وفي طريق عودتي اعترضت سيارتنا نقطة تفتيش تابعة لتنظيم داعش، وكان معنا أحد الركاب الذي يبدو أنه من المطلوبين للتنظيم، فاعتقلونا جميعاً..

لن أحدثك عن ظروف الاعتقال والتعذيب، فقد مر بك ما مر من الحزن وهذا يكفي، أمضيت قرابة الشهر في السجن ما بين المهانة والإهانة والتعذيب، وفي أحد الأيام زارنا مساعد قائد التنظيم، وتحدث معي لعلي أحمل أخباراً تساعدهم في تقدمهم، وأثناء حديثي معه أعجب بقدرتي على احتمال ظروف الاعتقال والتعذيب، وأثناء الحديث سألني: لما أنت هنا؟

فأخبرته أنني لا أعلم، ورويت له ظروف وجودي في العراق، فقال: حسناً سأخرجك من هذا المكان بشرط أن تكون معنا!!

أكون معكم؟!

نعم.. تنضم للتنظيم، وأنا واثق أن هناك أدواراً عظيمة تنتظرك، رغبني في العمل معهم تارة بالمغريات وتارة أخرى بالتهديدات، إلى الحد الذي لم أعرف فيه حتى الآن كيف وصلت بي الأمور إلى ذلك، وأجبروني

على قطع الاتصال بكل من حولي، حتى وإن كانوا أقرب الناس لي، وأظنك تعلمين أن كل شخص في هذا التنظيم مراقب من قبل من حوله، لذا انخرطت بالعمل وعملت معهم بإخلاص لأثبت كفاءتي، ولعلها تكون فرصة لي للهروب والعودة إلى أحضان والديّ..

ولا أخفيك عندما عرض عليّ الرطباوي فكرة نقل الأسلحة إلى سورية، هوى فؤادي إلى الرقة، فعقدت العزم للهروب إلى الرقة، ومن ثم مغادرة الشام.

أشياء لا تهتدي إلى موطنها..
تأكل الغربة أطراف ثوبها..
أرواح مسجونة في منتصف الحرية

(نبال قندس)

أخبريني أنت كيف جئت هنا؟ وما هي أخبار الأهل؟ كيف والدي ووالدتي؟

تصمت شروق وتروح في آهات عميقة تبرز حجم الوجع.. آه آه يا ورد كنا نخاف من الموت، فصرنا نخاف أن يتأخر كثيراً ويتركنا للحياة.

لم يبق في الرقة سوى السنديانة يستظل بها قبران الأول لأبيك والآخر لأمك، أما الياسمينة فأعتقد بأنها قُطعت، وتراب الأرض خالطه الدم.

ينهار ورد من فرط بكائه كأن السقف سقط على رأسه، يتمتم بكلمات وكأنه يهذي بما قاله (حذيفة العرجي):

شوق يعود عليّ كل مساء
يقتات من صبري ومن أحشائي

يجتاحني كحمامة حيرانة

ويعيش بي كتعرجات الماء..

تمر ساعتان وتنهي شروق سرد أحداث الحكاية لورد الذي أصبحت نفسه جاثية على ركبتيها لا يستطيع النهوض من هول ما سمع، تمسح شروق دموع أخيها، وتسأله: ماذا سنفعل..؟

لا وقت للحزن، نحن نركض كي نسبق الرحيل بخطوة، كل فصولنا أصبحت مواسم أحزان، ماتت ملامح الفرح في مقلتينا، لقد عجنا الوطن حتى صرنا أرغفة طازجة يغمسنا الأعداء بالرصاص... فيا إله متى ستشبع السماء..؟!

كفكف دموعك ليس ينفعك البكاء ولا العويل

وانهض ولا تشك الزمان فما شكا إلا الكسول

واسلك بهمتك السبيل ولا تقل كيف السبيل

ما ظل ذو أمل يوماً وحكمته الدليل

كلا ولا خاب أمري يوماً مقصده نبيل.

إسمعي يا شروق.. بعد أيام قليلة سوف نقوم بتحميل قافلة الشاحنات بالصناديق الفارغة من أجل تعبئتها بالأسلحة من قبل جماعة الرطباوي سأضعك خفية في أحدها، فأنت في عرفهم في عداد السبايا ولا يجوز إخراجك من البيت، سأرتب الأمر جيداً، ونهرب سوياً إلى الرقة نودع والدينا ونغادر الشام إلى تركيا، ومن ثم نهاجر على متن أحد القوارب التي تهرب المواطنين واللاجئين إلى أوروبا..

إن المعركة بين السكاكين ورقاب العصافير معركة قديمة
ونظرة واحدة إلى السماء..
وإلى ملايين الأجنحة التي تخترق المدى الأزرق كل صباح
من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب
تؤكد أن المعركة تنهي دائماً بانتصار العصافير

(نزار قباني)

الزهرة الثانية عشر

لسنا من الأحياء في أوطاننا ولا من الأموات..
نهرب من هروبنا مخافة اعتقالنا بتهمة الحياة ..

(أحمد مطر).

المكان   مدينة درعا، مقر قيادة المقاومة، اجتماع طارئ لقيادات وفصائل المقاومة، يقول القائد:

أنتم تعلمون أننا تكبدنا خسائر فادحة خلال الأيام السابقة، وأننا نواجه ونحارب أكثر من جهة وعلى أكثر من جبهة، وأن أكبر خسائرنا تمثلت في سيطرة داعش على مدينة الرقة، لكن عيوننا في المنطقة أبلغونا بأن التنظيم يعاني من نقص حاد في الأسلحة، وأن تنظيم الدولة في العراق سيقوم بإرسال شحنة كاملة الدسم لإمداد المقاتلين في الرقة، ومن أجل ذلك ارتأت القيادة إرسال قوة من الجيش إلى حدود مدينة الرقة، لنصب كمين محكم للاستيلاء على الأسلحة، وسيكون على رأس

هذه القوة النقيب (سيف) كونه من سكان الرقة سابقاً ويعرف تفاصيل المنطقة جيداً من حيث المنافذ والمخارج والطرق.

المهمة بالنسبة لسيف جاءت كفرصة طال انتظارها منذ سنين.. هل سيعود إلى الرقة؟ هل سيكحل عينيه برؤية أحبابه؟ يقف سيف ويقول:

- أشكركم على هذه الثقة الغالية التي أوليتموني إياها، وسوف أجهز نفسي وأعد خطتي، وأطلعكم عليها للبت فيها، وإن شاء الله تتم العملية في أفضل صورها.

وعلى سبيل السعادة التي بدأت تفتح أبوابها من جديد، يسافر (سيف) بخياله وينظم لحظات الدفء القادمة في أحضان أمه وأبيه والصغيرة شروق ويتذكر الأخ الأكبر (ورد) الذي لطالما ندم على خلافه معه.

كيف سألقي والديّ وأخبرهم عما حدث معي؟ يجب أن أستولي على شحنة الأسلحة وأرسلها لمقر الجيش الحر مع أحد المساعدين، وأنا سأتحجج بما يمكنني من رؤية أهلي، ومن ثم أرتب أمري مع بعض الأصدقاء لأغادر سوريا.. يرج رأسه وكأنه يستيقظ من وجع، يتذكر أنه في هذه الحالة سيكون مطلوباً ومطارداً من الجيش الحر من جهة وتنظيم داعش من جهة أخرى.. يعاود التفكير ويصر على فكرته.. لا يهم المال موجود وسأتدبر الأمر.

في هذه الأثناء يعترض سيف أحد معاونيه، وهو يبكي ويعتصر من الألم، يستغرب سيف، ويرتب على كتفه ويقول ما بك يا صهيب؟ أجبني؟

لا يتمالك صهيب التقاط أنفاسه من البكاء، ويطأطئ رأسه، فيأخذه سيف إلى مكان بعيد، ويقول له: ما بك؟ تحدث بحرية!!

- لا أنام الليل وأنا أفكر في مصيري، ولا أعلم هل ما نقوم به صحيح أم لا هل التنظيم يحمل رسالة أم يسيء للإنسانية، إنني اتفتت، أكاد أتلاشى كما يتلاشى دخان المراجل!!

- هون عليك يا صهيب، لا تفكر كثيراً وحافظ على هدوءك، وستأتي معي لتنفيذ العملية، ومن ثم لن يكون إلا ما يرضي ضميرك..

- كلماتك تزيد قلقي، وتكرس لدى سياسة التنظيم في هدر دم المنشقين وأنا لست منشقاً، وإنما أحتار فقلبي لا يحتمل.

- لا عليك.. أنا أفكر بما تفكر به وسترافقني ما حييت.

في هذه اللحظة ينادي أحد العناصر على سيف، ويحمل في يده كتاباً موقعاً من قائد التنظيم يحدد فيه موعد الانطلاق للمهمة ساعات الفجر، وهيكلية توزيع القوة التي ستنفذ العملية موزعة على أربعة مداخل للطرق الرئيسة والفرعية لمدينة الرقة، بحيث يكون تواجد سيف ومجموعته على الطريق الزراعي، وتحديداً فوق الهضبة المطلة على هذا الطريق.

يعود سيف إلى منزله بسرعة البرق، ويلملم الأغراض، ويضعها في حقيبة كبيرة وينزع صوراً تجمعه بأهله من حائط الغرفة يقبلها قائلاً: اشتقت لكم كثيراً، اشتقت لحديثك يا أبي ولصوتك ومنبع حنانك يا أمي ولضحكتك يا شروق، ومعاندتك يا ورد، اشتقت للاجتماع معكم على مائدة واحدة.. وكأنه يستجدي قول (سعيد عقل):

شـام يا ذا السيف لم يغب   يـا كـلام المجد في الكتب
قبلك الـتـاريـخ في ظلمة   بعدك استولى على الشهب
لي ربـيـع فـيـك خبـأتـه   مـلء دنـيـا قلبي التعب

هانت .. كلها أيام وسأجتمع بروحي التي غابت منذ بعدت عنهم، ونعيد الذكريات، وسأعرض عليهم فكرة الهرب واللجوء إلى أي دولة أوروبية لنعيش بأمن وسكينة بعدما أصبح الوطن حبل غسيل لمناديل الدم المسفوح.

يأتي الفجر وتنطلق القوة من درعا عبر الطريق الزراعي باتجاه مدينة الرقة، ويملأ قلب سيف السعادة والهناء بأن حلمه في العودة سيتحقق قريباً.

لكن، للأسف لا يحلو للحلم إلا أن يتحلل في صدمة، مشاهد الطريق لا تظهر إلا خراباً.

من هنا مر الطوفان حاملاً معه الصغار والكبار
فاقطفي يا أمتي من ثمار الصمت
واحصدي يا عروبتي من غلة القهر
وانثري فوق قبورنا ما تبقي من ياسمين الشام.

الزهرة الثالثة عشر

في الحرب ليس الذين يموتون هم التعساء دائما
الأتعس أولئك الذين يتركون خلفهم ثكالى .. يتامى .. ومعطوبي أحلام
(أحلام مستغانمي)

كعادتها شروق تقف على حدود الياسمين، تنزف من الحزن وتتكئ على انكسارها تقيم حديثاً مع نفسها متسائلة، هل ستنجح الخطة؟! تدعو يا رب إن كان لا بد من فرح فليكن خفيفاً على القلب والروح.

تغرق في صمت قاتل، تتلاشى مع الذكريات كدخان المراجل، كأنها تتمتم:

ليت لي فجراً .. لنرجسه أغنى
أيها الآتون من شمس القلق
الباحثون عن الألفة
قلبي عليكم ذات وجدا واحترق (يوسف الديك)

حسناً يا رجال.. عليكم تحميل هذه الصناديق على الشاحنات، وبعد الانتهاء أخبروني موعد الانطلاق الساعة (3:00) فجراً، هذا حديث ورد لرجاله، ثم يدخل بيته، وينادي على شروق:

عزيزتي.. يا مهجة النفس يا بقايا الوطن، ألا جهزتي لنا طعاماً، أشعر بالجوع، ولا تنس أن تجهزي بعض الأطعمة لتضعيها معك في الصندوق، وغطاء ثقيل، فالقافلة تسير ببطء، والجو بارداً في الليل.

شروق .. شروق .. ينادي عليها وهي غارقة في تفكيرها..

تنتبه له جاحظة عينيها.. فيقول ورد: بما تفكرين يا حلوتي؟

أبداً.. أشعر بالقلق فقط.

لا يا حبيبتي.. لو أن الأمر مقلق ما خاطرت بك..

حسناً .. إن شاء الله خير..

يقول (أدهم شرقاوي):

أفكر كثيراً كيف سأواجه الغد

ولكن تفكيري يذهب سُدى

فالغد دوماً يأتيني بالأمور التي نسيت أن أفكر بها..

وبينما يتناولا الطعام، ينادي أحد العناصر، فيخرج ورد، وكأن على رأسه وابل من الحجارة، ما بك يا رجل؟ لقد أفزعتني..

- لا تقلق يا سيدي .. انتهت عملية تحمل الصناديق، والشاحنات جاهزة للانطلاق وتم تجهيز الفرقة والمرافقين، وخمسة سيارات مصفحة، لكن لم تبلغني يا سيدي أي من السيارات ستركب؟

- سأختار أول شاحنة في القافلة وأجلس بجوار السائق.

يغلق الباب ورد، ويقول: هيا يا شروق ارتدي هذا اللباس والعمامة وتلك العباءة فوقها واخرجي من الباب الخلفي، وانا سأخرج لأرتب الأمر..

- شباب الآن عليكم الذهاب لإبلاغ أبي الدرداء أننا سنغادر المكان، وأحضروا من عنده أربعة أسلحة رشاشة.

لم يكن هذا الطلب إلا ذريعة لإخلاء المكان، فتخرج شروق من الباب الخلفي، ويساعدها ورد على الصعود إلى الشاحنة ويفتح أحد الصناديق الموجودة في مؤخرة الشاحنة، ويضع الغطاء في أسفله، وتدخل شروق ممددة ويضع غطاء آخر فوقها، ويكتب على الصندوق (خاص بالرقاوي)، حتى يميزه، ولا يتجرأ أحد على فتحه.

كم وكم علينا أن نسير على نصل السكين الحاد..

حفاة .. عراة..

حتى نصلك أيتها البلاد النائمة خلف السور .. (ناصر قواسمي).

يأتي الجميع، ويتأهبون للانطلاق، وقبل تشغيل المحركات يقرأون تعاويذ النصر.. وكأنهم على الحق!!

الوجهة (قرية السوجين) المكان المحدد لتحميل الأسلحة، تسير القافلة بشكل بطيء، ويبدو الطقس مائلاً إلى البرودة، وورد يركب نفس الشاحنة التي يوجد بها صندوق شروق، تلك التي لا يليق بمثلها المغامرة، ولا يليق بقلبها إلا الفرح...

ترقب شروق الطريق من بعض مساحات الصندوق المفتوحة،

تشعر بالوحدة.. وحدة القهر المطعمة ببرودة الحنين والتي أثبتت لها كم هي فقيرة لأحضان أمها، لرائحة السنديان وعكاز ابيها.

تقول في نفسها: لم أكن أعلم أن الحياة تخبئ لي كل هذه المصائب، حتى لو كان ما أشهده حلماً فلن يكون كهذا الواقع الذي أعيش، لكن الحمد لله الذي أعاد لي ورد، فقد أعاد لي الإحساس بالأمان، فكم أنا سعيدة به، لكن الغصة في قلبي تؤرقني حول مصير (سيف).. يا ترى هل سيجمعني الله به؟ ليس على الله بعزيز

سيف يا ندبة القلب..

إن استطعت أن تنس رائحة الياسمين، ورائحة أمك وخبزها وقهوتها وبحة صوتها الحنون..

إن استطعت أن تنس البحر، والصباح تحت السنديانة والغروب..

إن استطعت أن تنس قبلة اليد في صبيحة العيد

إن استطعت أن تنس تفاصيل شروق

وإن ... وإن ... وإن ..

حينها ستنس الوطن..

الساعة التاسعة صباحاً تصل القافلة، المكان المحدد في قرية السوجين لتحميل الأسلحة، ينزل ورد من الشاحنة، ويتمشى إلى الخلف، ويصعد ويقترب من الصندوق الذي توجد به شروق، ويهمس بصوت خافت:

- أميرتي أخبريني هل أنت بخير؟ هل تشعرين بالبرد أو التعب؟

تجيب بنفس النبرة، وتذبذبات الوجع، لا يا روحي .. أنا بخير، أعد

الساعات والدقائق حتى تصل إلى الرقة..

سنصل إن شاء الله، استعدي للفرح يا قلبي واعتزمي الخلود، وكأنه يلقنها ما قالته (سامية جلابي) حين قالت:

قل لنفسك ذات يأس

أنا التوهج حين تنطفئ الشموس

وأنا صدى الأمل المجلجل في زوايا الروح

أعتزم الخلود

في هذه الأثناء تأتي مجموعة من السيارات المحملة بالأسلحة وبعض الخيول التي تحيط بالقافلة، ينزل من إحدى سيارات الدفع الرباعي (الرطباوي) ويسلم على ورد ويقول:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام قائدنا

- أكثر ما يعجبني فيك احترامك للوقت، وحسن تخطيطك وهذه صفات القائد الناجح، أعط الأمر بتحميل الشاحنة.

يقف ورد والرطباوي بالقرب من الصندوق الذي توجد به شروق، ويسأله:

- أخبرني.. هل شعرت بالسعادة مع البلهاء؟

- ليس السعادة فقط، بل أنني شعرت أني وجدت ضالتي التي أبحث عنها منذ سنين..

- عظيم .. عظيم .. هههههه، ألهذا الحد؟ يبدو أنه لم يكن لك أي تجارب سابقة مع النساء..

يستمر الحديث الذي يشبه جيف النسور العارية، ويجيب ورد باقتضاب على ذلك الذي لا يحلو له إلا أن يحلل الكلام في سموم.

ينادي أحد الجنود .. مولاي الرطباوي، القافلة جاهزة والصناديق محملة باستثناء الصندوق الذي يحتوي احتياجات القائد الرقاوي..

وهنا ينظر الرطباوي إلى ورد، ويقول: أي صندوق؟

يزرد ورد ريقه، وكأنه بلع الكلام، ويقول: بعض أشياء خشيت عليها في غيابي، وسأحتاجها في طريقي!!

ظهرت ملامح الشك في كلام ورد على ملامح الرطباوي، لكنه يعطي الأوامر للقافلة بأن تتهيأ للتحرك، ويسلم على ورد ويخبره: لا تجبرني على تكرار وصيتي لك احذر الطريق جيداً، لقد كلفتنا هذه القافلة ثمناً باهظاً، ومن الصعب الحصول على مثلها، هي تحتوي على أسلحة متطورة لأول مرة سيتم استخدامها..

- لا تقلق مولاي.. اعتبر المهمة تمت بنجاح..

تغادر القافلة قرية (السوجين).. صحيح أن المسافة بين القرية والرقة حوالي 350 كم، منها 150 كم في الأراضي العراقية، وقد تستغرق الطريق حوالي ست ساعات، لكن الطريق الذي ستسلكه القافلة لن تكون معبدة بالورود وليست واحدة، ولضمان وصولها بأمان سيتم دخول أكثر من طريق حسب توقع الخطر، خاصة وأن هذه الطريق محاذية لجبل سنجار، وعليه ستضطر لدخول مناطق موحشة وصحراء واسعة، لكنها ستكون أكثر أماناً.

عينا شروق ترقبان الطريق التي يحذروها الأمل بالنجاة، ينحني الزمن معها على رصيف الذكريات، وتذبل ورود الوداع وتشتعل المشاعر وتتلاشى الحروف، ولا يبقى سوى الشوق والحنين للأرض.. للأم .. للأحلام الضالة.

تدخل القافلة في طريق البساتين الضيقة، فترى البيوت المهجورة والأوجاع المنخورة المرسومة على جدران المنازل، وأغصان الشجر المتفحمة لكنها شامخة بصمودها، وصمود أهلها الذين تجرعوا الويلات قسراً وابتلعوا القذائف هوناً..

كل ما حولي يدعوني للانحناء
وكل ما في يقول: تسقط السماء من علوها على رأسي
فأتكسر تحتها دفعة واحدة .. مرة واحدة
لكني لم ولا ولن أنحني قط ..
فلي صباحات لم أدركها بعد ولم تدركني ...
ولي غد لم يصلني ولم أصله ...

(ناصر قواسمي)

بدأ الظلام يخيّم على الطريق والطقس ينسحب نحو البرد القارص، التفت شروق بالغطاء على رأسها وأسدلته على كتفيها، لكنها هذه المرة بدأت ترتجف من البرد والخوف معاً، الأمطار اشتاقت للأرض في هذه اللحظات   شعرت شروق في هذه اللحظة أن الدنيا على اتساعها أضيق من ضمة صدر أمها أو قبلة جبين أبيها   يكسوها قناعة مفادها

أن كل الأشياء بلا معنى، وكل الملامح فارغة، وكل العيون آبار وجع، وأنها وحدها من يدرك الألم.

وفي لحظة خاصم فيها قلبها النبض، سمعت شروق صوتاً غريباً يصدر بالقرب من إحدى الصناديق المجاورة، تحاول أن تحسس قلبها قبل أن يقف من الهلع وإذا بها قطة، فتنفست الصعداء وبدأت تستدعيها بعقلة أصبعها الخارجة من الصندوق، فاقتربت القطة كأنها استشعرت الحياة، فمدت لها شروق بقطعة جبن فأكلتها

يا لتقاسيم القدر، وكأنها من جند الله - القطة - جاءت لتؤنس وحدتها وترتب على قلبها من الخوف، تجلس بالقرب منها

تحادث القطة أنا أعرف سبب وجودي في هذا الصندوق، وفي هذه الظروف، لكن أنت ما الذي أتى بك هنا؟ ما الذي جعلك تصعدين إلى هذه الشاحنة بالذات؟ وهل تعلمين أين قبلتها؟ سبحان الله.

تحاول أن تنام لكن دون جدوى، البرد قارص والمطر متفرق، وقد اقترب طلوع الفجر وفوق كل ذلك يفتتها التفكير والتساؤلات، ما ذنبها وذنب غيرها هل أثقلوا الوطن خيبات ليشبعهم وجع بهذه الصورة؟!

الليل - يا أماه - ذئب جائع سفاح

يطارد الغريب أينما مضى

ماذا جنينا نحن يا أماه؟

حتى نموت مرتين

مرة نموت في الحياة، ومرة نموت عند الموت!! (محمود درويش)

ضاع نصف العمر، ونحن نبحث عن نصف العمر الآخر ثم ماذا؟ نحن السوريين فقدنا كل شيء في منتصف الطريق، وعدنا إلى ما وراء نقطة الصفر، علينا الآن أن نبحث عن وطن، ثم بيت ثم هوية وجواز سفر، ثم عن أنفسنا وأرواحنا الشريرة.. من نحن في هذا الفراغ الأحمق.. تباً لأعمارنا التي اهترءت.

تحاول شروق أن تعيد التوازن لدماغها، تتذكر تفاصيل اتفاقها مع ورد عند الوصول إلى مشارف الرقة وخطة الهروب، وزيارة قبري والديها قبل مغادرة المدينة، فتنسج مجموعة من الخطط والاحتمالات التي تطرد شبح النوم من أروقة دماغها.

(ليس أمامك غير الفرار .. الفرار الذي يتجدد كل صباح)

أمل دنقل.

الزهرة الرابعة عشر

مطرودون نحن من منزل الحياة الفاخر
نبيت كل ليلة في العراء، ولم نعرف السبب
لكنني سمعتهم قبل قليل – أصحاب المنازل-
يتهامسون بينهم أننا نحن الحفاة الراكضون كأطفال
خلف كرة العمر البالية في ساحة الحرب الشائكة
بأقدامنا المتسخة بالدم والغبار ..

(محمد النعيمات)

المكان بلدة الكرامة التي تبعد عن مدينة الرقة بضعة كيلو مترات، وفي منطقة مرتفعة بين الأشجار يجلس سيف، ومعه فرقة مكونة من أحد عشر عنصراً يراقب الطريق الزراعي المؤدي إلى الرقة..

وما بين حلم يتحقق وحلم يتعثر تبقى أحلامنا على قيد الانتظار، سيف يمني نفسه بأن يكون مسير القافلة ووجهتها من هذا الطريق بعد أن قسمت فرقته إلى أربع مجموعات، ووقع اختيار سيف على هذا المكان

لاعتقاده وحدسه بأنه أكثر الأماكن احتمالاً بأن تمر بها القافلة نظراً لكثافة الأشجار التي تحجب الرؤية.

بدأت الشمس بالغروب، وما زال سيف يحدث رفاقه ويحثهم ويشحذ هممهم بضرورة الاستيلاء على القافلة، ينادي أحد العناصر على سيف:

- سيدي هناك صوت يأتي من بعيد، صوت دوي السيارات يلتحف المكان.

- أعطني المنظار، فيرى سيارة تسير ببطء يتبعها رتل من الشاحنات والسيارات رباعية الدفع لكنها بعيدة للغاية، لا يستطيع تمييزها، يطلب من الجنود التأهب والاستعداد ليكون الرتل في مرمى البنادق والقذائف ولينتظروا الأوامر.

يطلب من اثنين من الجنود الالتفاف من خلف التلة واثنين آخرين من أمام التلة، ليباغتوا ويحاصروا رتل الشاحنات.

يعيد النظر مرة أخرى، ومرات متتالية في المنظار ليتأكد من أنها صيده الثمين ويتبعها الاتصالات باللاسلكي مع العناصر إلى أن وصلت أسفل التلة وفي المكان المناسب لمرمى النيران..

يعطي سيف الأوامر ببدء الهجوم، والنزول بشكل تدريجي من التلة مع المحافظة على كثافة النيران..

من يوقف في راسي الطواحين..
من ينزع من قلبي السكاكين
من يقتل أطفالي المساكين (أمل دنقل)

يدرك ورد فداحة ما وقع فيه، كمين محكم.. فينشده قلبه وعقله، ولا يفكر إلا في الشاحنة التي بها شروق، وأن هناك أسلحة وقنابل واستمرار إطلاق النار قد يؤدي إلى الانفجار..

شروق في حالة هستيريا، الرصاص يحاصر المكان، يشاهد ورد انقلاب عدد من سيارات الحراسة، ينظر إلى سائق الشاحنة ويطلب منه الإسراع والابتعاد عن المكان، يحاول السائق تجاوز السيارات، فيدهس كل من يعترضه لكن طلقة أصابت رأس السائق، تصطدم الشاحنة بجذع شجرة على جانب الطريق، وتتوقف.. ينظر ورد إلى الخلف فيصدم من هول الخسائر.

سيف يعطي توجيهاته لملاحقة أفراد التنظيم، وترتيب أرض المعركة بعد النصر، ويأبى إلا أن يجسد قدرة الله في جمع الشتيتين:

- أكملوا المهمة.. سأذهب لإلقاء القبض على ذلك الشخص، أظنه قائد القافلة.. يا له من صيد ثمين.. هيا يا رجال!!

ينزل سيف ببطء باتجاه ورد بينما يزحف ورد خلف الشاحنة باتجاه الصندوق الذي توجد فيه شروق، يطمئن عليها، ينادي: شروق هل أنت بخير؟

وما أن أتم جملته، وإذا بفوهة البندقية في رأسه من الخلف، يخاطبه سيف: لا تتحرك وإلا كانت القاضية!! ارفع يديك..

تصرخ شروق: لا تؤذيه أرجوك، اتركه

يقول سيف.. أهاااا، أن تهربوا الأسلحة أمر توقعناه، لكن أن تهربوا البشر.. هذا ما لم تستوعبه نخوتنا..

يقيد سيف يد ورد ويطلب من شروق الخروج من الصندوق، فتخرج شروق وترى سيف فتصرخ بأعلى صوتها يلتفت ورد، وهنا كانت الصاعقة (سيف، ورد، شروق) المكان واحد والقلب واحد، والعناق واحد.. ودون مقدمات تقول شروق: بسرعة بسرعة.. دعونا نهرب..

- حسناً سوف أقوم بتقييدكم وأخبار رفاقي بأني سأذهب بكم لأسلمكم إلى الفصيل الآخر في الجهة الأخرى وأطلب منهم القبض على بقية أفراد التنظيم، ومن ثم نهرب..

(معلقون نحن على حافات الأشياء، بلا سقوط ولا تحليق.. في منزلة بين المنزلتين.. خارج الموت والحياة.. داخل الاحتضار البطيء)

(غادة السمان).

ينفذ سيف خطته، وينطلق بإحدى السيارات وبرفقته ورد وشروق إلى أن اختفى عن الأنظار وبعد مسافة ليست طويلة يطلب من إخوته النزول لاستكمال الطريق والمسيرة مشياً على الأقدام.

وفي الطريق، وفي لحظات الخوف والرعب تقول شروق:

أكثر المشاعر تعباً هي أنك لست حزين

لكن الأشياء الكثيرة المركونة في صدرك، تحتاج إلى عناق أم لتبكي.

تسأل شروق سيف:

سيف أخي ما الذي حدث معك؟ ولماذا اختفيت؟

القصة طويلة يا حبيبتي، لكن باختصار بعد سفري بأسبوعين إلى درعا حدثت مسيرات ومظاهرات واحتجاجات من سكان درعا، وفي

يوم التوتر الشديد، كانت زوجة العم عطية في السوق، وأثناء إطلاق النار بشكل عشوائي أصابت رأسها رصاصة فماتت وأماتت كل إحساس جميل في قلب العم عطية الذي اعتبرني كابنة، فانضممت أنا والعم عطية إلى المعارضة، وتم إلقاء القبض علينا واعتقلنا في سجن درعا.

العم عطية لم يحتمل التعذيب وظروف الاعتقال، فتوفي في المعتقل بعد شهر تقريباً، أما أنا بقيت في السجن حتى هاجم الجيش الحر السجن وحرر كل المعتقلين، ومنذ ذلك التاريخ وأنا في صفوف الجيش الحر تدرجت في المناصب وأصبحت قائداً لأحد الألوية، حاولت الرجوع إليكم أكثر من مرة، لكني لم أستطع بسبب خوف الجيش الحر على حياتي..

وأنت يا ورد ما الذي حدث معك؟

الذي حدث معك حدث معي، أجبرت على الانضمام لداعش.

وما الذي جمعك بشروق؟ وما أخبار والداي؟

لا صوت لنا .. نلوح بأيدينا في الهواء

باستجداء

بلا أقدام .. نحاول الهروب ولا جدوى

هذا العالم فارس مهزوم، ونحن طواحين هواء.

(قدير الزعبي)

هنا يسقط السؤال بوابل الوجع على الرؤوس، يتبادل ورد وشروق النظرات، يزدرد كل منهما ريقه، ويطلق ورد لسانه قائلاً: أحباؤك في أحسن حال عند رب العالمين، ادع لهما بالجنة والرحمة، واقرأ الفاتحة على

روحهما الطاهرة.

- ماذا؟ أبي وأمي.. كيف؟

تحضن شروق سيف وتقول: رحمهما الله والحمد لله على كل حال، دعنا نواصل المسير، وسأروي لك ما حدث!!

استقبل سيف كلمات شروق بالدمع ويجثو على ركبتيه، كأنها نهاية الطريق يضرب راسه بيديه ويصرخ: أنا السبب.. أنا السبب.

لا النهر ينسى الحصى .. ولا الماء ينسى الضفاف

ليا ساكنين ببالي عشاً على الصفصاف

قدماي من شجر وعمري من شجر وأقول للحطاب أجلني

(سميح شقير)

يحاول ورد أن يهدئ سيف، موضحاً له أنه من المؤمنين بقضاء الله وقدره، ويروي له نيته بالهرب إلى تركيا ومن ثم الهجرة عبر البحر إلى أوروبا يمسح سيف دموعه، ويقف على قدميه، قائلاً، وأنا ما أتيت هنا إلا لهذا الهدف، كنت أود أن آخذكم ووالديَّ إلى أوروبا...

يصل الجميع إلى مكان قريب من بستانهم وهم عازمون على أن يأخذوا حقهم من الحياة عنوة، يطلب ورد منهم الالتزام بالهدوء والتسلل إلى الكرم لقراءة الفاتحة على أرواح والديهم، ومن ثم الانطلاق باتجاه تركيا.

يخاطب سيف القبور تحت السنديانة:

والديَّ، افرحوا ولا تبكوا نحن بخير ومجتمعين، وسنغادر هذا المكان بحثاً عن الأمان، ولو كان لي أمنية لتمنيت نقل رفاتكما معنا، لكن

ليس باليد حيلة.. سنعود يا أمي يوماً..

الحنين رسالة تتلوها العين دون كلام

على أيام خلت، ولا سماء ترقد في الوجدان بسلام

الحنين ملاذ دافئ للذكريات والأحلام

يليق الصمت بحضرته، وتصمت كل الأقلام

(سراجِ ياسين)

الزهرة الخامسة عشر

في كل عام يرجع الحزن القديم
ولا جديد
الموت ذات الموت
إلا أنه في كل عام قادم
يأتي ليختار المزيد..!!

(حذيفة العرجي)

تزداد أحوال البلاد سوءاً، ويشتد الحصار والقتل والتهجير، ويصر الأشقاء على عزمهم ترك البلاد، يتنقلون من مكان إلى آخر، يتقاسمون فتات الطعام على أمل أن يتسع الغد للفرح..

يا طيور الشام لا تبكي غداً لنا في دمشق لقاء..
ولنا الكحل في عينان باكية
أما أخبرتني يوماً تراب الشام أن للجروح دواء

(علاء الدين مهايني)

يركب الأشقاء في سيارة أجرة متجهين إلى الحدود التركية، يُخرج سيف من جيبه (3000) دولار ويقول: هذا المبلغ الذي استطاعت أن أجمعه ويعطيه لورد.

- يقول ورد: حسناً وأنا معي ثمانمائة دولار.. أعتقد أن هذا المبلغ كاف لتهريبنا..

تقف السيارة في مكان ليس بقريب من الحدود التركية، فيقول سائق الأجرة هذا أقصى ما يمكنني أن أصل بكم إليه، وعليكم السير على الأقدام والانتظار لكي تتسللوا عبر السياج إلى الداخل .. لكن لدي لكم نصيحة بعد أن تسللوا اذهبوا إلى مدينة (إزمير) فهي أقل المدن التركية خطورة وأكثرها سهولة في معاملات التهريب لأوروبا، وانتبهوا جيداً في سماسرة التهريب.

وبعد السير على الأقدام لمدة تجاوزت النصف ساعة تقريباً، استراحوا بالقرب من الحدود ينتظرون غروب الشمس، ليتسللوا من المناطق الوعرة..

وما بين هذه اللحظات ومن حين إلى أخر تنظر شروق إلى الخلف وتقول:

- وداعاً أبي، وداعاً أمي، وداعاً أيتها السنديانة .. وداعاً يا شام

ونحن لنا ماء الأرض، وعيون السماء

من نحن في هذا المدى الأخير المنتهي بموتنا، ورحيلنا القسري

من نحن يا سيدة الأرض؟؟

من نحن حين نصبح بلا وطن بلا أسماء؟! (وسام عثمان)

نجحت الخطة، واجتازوا الحدود ومشوا على الأقدام خمسة كيلو مترات داخل الحدود التركية إلى أن لمح سيف سيارة من بعيد، فأوقفها قائلاً:

هل بإمكانك أن تأخذنا معك إلى أزمير؟

إنها ليست طريقي أنتم هاربون من سورية؟

نعم.. ترد شروق

إن أردتم أن أوصلكم أزمير سأتقاضى أجراً (500) دولار.

وبعد تردد وتفكير رغم كبر المبلغ والمبالغة في الطلب وافقوا، فالتعب والجوع والخوف والعطش قد أرهق أرواحهم وأنهك أجسادهم، يصعد الجميع في السيارة، ويوصلهم السائق إلى أحد سماسرة التهريب على شاطئ البحر.

يتجه سيف إلى أحد السماسرة الذي كان كبير السن يجلس على مقعده الصغير يحتسي القهوة، وقبل السلام، يقول العجوز:

- أنتم سوريون؟
- نعم صحيح.
- وأنا كذلك.. أنا من الشام.. كيف أخدمكم؟
- نريد السفر إلى اليونان، ولا نحمل أية وثائق رسمية.
- أنا اسمي زيدان، أهلاً وسهلاً بكم طلبكم عندي، لكن لا تنسوا المخاطرة فهي هجرة غير شرعية.
- نحن نقدر حجم المخاطرة، لكن لم يجبرنا على ذلك إلا الشديد القوي.. ترد شروق.
- هناك نوعان للسفر بالقوارب لليونان، إما بالقارب المطاطي

وهذا النوع من القوارب الأكثر خطورة، واحتمالية غرق القارب عالية، وسعر التهريب من (1000 - 1500 $) للفرد الواحد، أو السفر باليخت السياحي (القوارب الآمنة) وهو أكثر أمناً وأسرع، ويكلف الفرد بين (2000 - 2500 $) للفرد الواحد.

- يرد ورد: يا عم زيدان نحن لا نملك سوى 3000 $ وبضعة دولارات ونحن ثلاثة، أما بالنسبة للموت والخطر فقد واجهنا من الوجع ما يكفي لاعتبار أن الحياة والموت سيان، فعطيك المبلغ وتؤمنا بالقارب المطاطي؟

يا وجع الوطن .. أي كفن أبيض يتسع لكل هذا الوجع؟!
كل الجثث التي تناثرت في سمائنا
تحولت إلى ماء .. وبقي الدم هنا ..
يصيح بنا: أيها الموتى..
وهل يصير الدم ماء ..

(علاء عفاش)

يرد زيدان: حسناً أعطني ألف وخمسمائة دولار عربون واذهبوا لترتاحوا قليلاً وتأكلوا بعض ما يقيتكم، وعودوا إلى هنا الساعة 10:30 ليلاً، لأن القارب سينطلق في تمام 11:00 لحظة تبادل مناوبة حراس السواحل، وإذا تأخرتم لن أستطيع مساعدتكم ولا حتى إرجع العربون لكم.

يعطي ورد العربون لزيدان، ويغادر مع إخوته، يحاولون إقحام الفرح إلى قلوبهم، لكن سيف يقول:

في بلادنا التي حفظناها عن ظهر قلب.. الذي لا يهاجر منها حتى الآن اصبح اسمه: الذي هاجر أصدقاؤه وإخوته..

يمرون عن باب أحد المطاعم، تقول شروق: ورد، إني اشعر بالجوع!!

تعالي يا قلبي.. كلي حتى تشبعي!!

يا إلهي.. ما ألذ هذا الطعام! منذ زمن لم نجتمع على مائدة واحدة، اذكر آخر مرة اجتمعنا فيها كان بيننا أبي وامي وتناولنا الديك الرومي المحشو بالخضار يااااااه.. تلك الأيام ما أجملها! عودتكم لي عوضتني عن كل شيء..

وبعد ساعة من الحديث الدامي، غادر الجميع المطعم باتجاه السوق، يشتري سيف خبزاً ولبناً وجبنة، ويشتري سترة نجاة قوية وملابس سباحة، رغم ارتفاع ثمنها.

– لماذا اشتريتها؟ تقول شروق
– اشتريتها لك لترتديها.
– وأنتم؟
– أنت أملنا يا شروق، فما قيمة حياتنا ما لم نحافظ عليك.

الساعة تشير إلى العاشرة، عادوا جميعاً إلى العم زيدان، ازدحام في المكان، طابور الموت يقتحم الأجواء.. حوالي أربعون شخص بين نساء ورجال وأطفال، يحادث ورد زيدان بعد أن أعطاه باقي المبلغ فيعطيه ورقة مكتوب عليها (3) مشفوعة بتوقيعه.

– أخيراً سنغادر.. يقول ورد لسيف.

أيتها الليلة الثقيلة من الذي دفنك بكل هذا الصمت..

وحقنك بكل هذه الكآبة
وعلق في سقفك الأسود مشنقة القمر؟!

(ممدوح حمادة)

القارب صغير بالكاد يتسع لعشرة أشخاص، لكن عدد الركاب يفوق الأربعين على ظهر القارب، بتمام الساعة الحادية عشر تحرك القارب، يقف سائق القارب للتعريف بنفسه:

أنا أسامة، سائق قارب الأحلام والمسؤول عن سلامتكم، لذا عليكم طاعة الأوامر.. قبلتنا ستكون إحدى الجزر اليونانية، وهذه الجزيرة تستقبل أسبوعياً ما يقارب (1000) لاجئ ومهاجر سوري، إن وصلتم سالمين بإذن الله، فسوف تنتظرون في هذه الجزيرة، إلى أن يأخذوكم إلى المعسكرات للحصول على أوراق تسجيل قانونية، ومن ثم يأذنون لكم بالمرور إلى أوروبا، هذه الجزيرة هي مدخل الفارين من الحرب في سورية.. لا تقلقوا ستجدون أمثالكم كثر في هذه الجزيرة.. هل من سؤال؟

هنا زمن الخيبات المتصلة .. والجثث المتناثرة
من المدن إلى الصحراء ..
فيه يصير القبر هواء، ويصير الكفن دماء
ويصير عزاء الناس تألق اسم قتيل

(ممدوح عدوان)

امتزجت مشاعر الجميع بين الفرح للنجاة في واقع مرير، والحزن لفراق الوطن، والتفكير في مصير الحياة القادم، ومصير المتبقي من القلب

ورماد الذكريات..

هل ستكون أوروبا جميلة؟ هل سيجدون إنسانيتهم التي فقدوها في وطنهم؟ هل ستحنو عليهم حكومات أوروبا بعدما نبذتهم حكومتهم؟ لا أحد يحدث الآخر، الكل يتأمل عدل سواد الليل، وشروق ترخي برأسها على صدر ورد وتتأمل القمر كأنها تكتب لمحمود درويش ما كتب:

ولنا بلاد لا حدود لها كفكرتنا عن المجهول

ضيقة واسعة..

بلاد..

حين نمشي في خريطتها تضيق بنا

وتأخذنا إلى نفق رمادي

فنصرخ في متاهتها: وما زلنا نحبك

حبنا .. مرض وراثي..

وفجأة، صرخت شروق، وبدأت تردد: موطني موطني، الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك.. والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك...

هل أراك .. هل أراك سالماً منعماً وغانماً مكرماً...

ويبدو أن الجميع أصابه الحنين في مقتل، هب على رؤوسهم الوطن الذي يسكن فيهم، لكنهم لم يتوقعوا أن الكارثة قريباً جداً، وأن الموت بدأ يحاصرهم.. تهب العاصفة بلا استئذان، يهتز القارب نتيجة للرعب الذي دب في قلوبهم وبدأت الأمواج تلاطم القارب وتتسرب بسبب ارتفاع الموج إلى داخل القارب..

تعالت الأصوات وصراخ بعض الأطفال، ينهرهم أسامة: اهدأوا ولن يحصل شيء، بشرط أن تسمعوا الكلام وتحافظوا على الهدوء.

لم يقتنع الركاب بكلام أسامة، هاجوا وماجوا، وكلما مر الوقت اشتدت العاصفة وزاد الرعب وانتشر الخوف، وبدأت السماء تمطر...

ألبس ورد وسيف أختهم سترة النجاة، وضماها إليهما، وهي تبكي وتدعوا الله أن ينجيهم، يقول ورد بصوت مرتجف:

- لا تبكي يا حبيبتي؟ سيكون كل شيء على ما يرام إن شاء الله.

يرد سيف: إن ما يجري الآن وما جرى ما هو إلا حلقة بين الحلم والكابوس..

ربي لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، اللهم ألطف بنا يا الله.

إلى متى .. نداوم على هذا الانكسار؟

إلى متى نمضغه مع كل ضوء من أضواء الفجر؟

كلما فتح الصباح عينيه.. تذكرت انكسارنا!!

تزداد سرعة الرياح والأمطار تتساقط بغزارة، يحاول الجميع ارتداء سترة النجاة، وفجأة يقفز أسامة في البحر بعدما أيقن أن سكين الموت قادمة، يقلب القارب وما زالت شروق تتشبث بسيف في يمينها وورد في يسارها.. الجميع يتساقطون.. يصرخون..

وبعد لحظات خاصمها القلب والنبض، وعادت الروح لمعظمهم إلى خالقها تفتح شروق عينيها بجفون منهكة، حالة من السكون للبحر، وصفاء للسماء، ملقاة على شاطئ البحر، وحولها رجال الإنقاذ،

يقول لها أحدهم:ما اسمك؟

بصوت يتوشح البياض تقول:أنا التي تطفلت على الموت.

أنا جرح الياسمين

النهاية



عندما

تمطر السماء رصاصاً

يتحول لون الياسمين

إلى الأسود،

وندرك حينها

أن الربيع غادرنا

دون

استئذان...



عمان - العبدلي - مقابل مجلس النواب

هاتف: 4626626 6 962+ تلفاكس: 4614185 6 962+

ص. ب: 520646 الرمز البريدي: 11152

info@yazori.com www.yazori.com

